سلسلة نصوص

@ketab_n
7.1.2015

البوذية

تأليف كلود ب. لفنسون
ترجمة د. محمد علي مقلد

الكتاب الجديد

كلود ب. لفنسون

البوذية

ketab_n

ترجمة

الدكتور محمد علي مقلّد

دار الكتاب الجديد المتحدة

Twitter: @alqareah

البوذيـــة

Twitter: @alqareah

Original Title:
Le Bouddhisme
by **Claude B. Levenson**
Copyright © **Presses Universitaires de France**, 2004

جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع دار المطبوعات الجامعية الفرنسية ـ فرنسا

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2004
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008
الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

البوذيــة

ترجمة الدكتور محمد علي مقلّد

موضوع الكتاب دراسات دينية
الحجم 17.5 x 11.5 سم
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-378-5
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2005/7367

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 96-11 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

Twitter: @alqareah

مقدّمة المؤلف للطبعة العربية

هل البوذية اليوم موضة، أم نظرة مختلفة إلى عالمنا؟ يمكن أن يُطرح السؤال وقد تتكاثر من أول الكون إلى آخره اللقاءات والمحاضرات، الدينية وسواها، التي تحاول إضفاء معنى على المغامرة البشرية. إذا صدقنا الشهادات النادرة لرحّالة الزمن القديم، فإن البوذية والمسيحية والإسلام تحاذت على مرّ العصور على دروب محفوفة بالمغامرات، حيث التجار والحجاج استأنفوا تجربة قادة القوافل ليقطعوا الأراضي الواسعة كالحلم، وحيث المحاربون وقطاع الطرق يسهرون على الكنوز. إن الطريق المسماة طريق الحرير تحفظ من تلك الدروب بقايا وذكريات، حتى لو بدا أن كل ديانة حفظت ما يعنيها، من غير أن تبحث حقاً عن اللقاء ما وراء متطلبات الانتماء الإلزامي.

في ظل الظروف الجديدة التي ولدتها التحولات الجارية، حيث تتقلص المسافات مع السرعة المتنامية لوسائل النقل، يبقى علينا أن نخفف كثيراً الأحكام المسبقة التي تعيق أفضل تفاهم بين البشر. إن تبادلاً مثاراً غير بعيد عن المكائد، يبدو أنه يقوم بين مختلف عائلات أهل الكتاب. غير أن العالم لا ينحصر في هذه الحدود.

إن انفتاح المجتمع خلال العقود الأخيرة قد وسَّع الأفق، راسماً داخل حقل موسع من النظر طريقة جديدة في تناول

Twitter: @alqareah

العالم، الذي كوّن شرق ما بعد البوسفور منذ ألفيتين ونصف. على القارَّة الآسيوية، أفضى تاريخ رجل وبحثه الروحي القاسي إلى ولادة ما سُمّي البوذية: فلسفة وفق حياة وحكمة ومعرفة أم ديانة؟ إنها قبل كل شيء شبكة قراءات للمجتمعات البشرية في مجرى تغيرها لحظةً يبدو أفضل أنواع التناغم أمراً ملحاً، وتبدو الانحرافات بفعل غيابه خطيرة، لا يمكن لمثل هذه المقاربة المختلفة في سبر العلاقات بين البشر إلا أن تثري الحوار الضروري.

Twitter: @alqareah

مقدّمة المترجم

من المفيد أن تضم المكتبة العربية كتاباً يتناول البوذية في قراءة علمانية أو غربية أو أجنبية. وجوه الفائدة عديدة، أولها، معاودة الانفتاح على ديانة، بل ديانات، وحضارة مضى على مرحلة الاحتكاك الأول بها قرون طويلة، وأُسدل الستار على تفاعل خلّاق معها منذ أخذت حضارة العرب تدخل عصر الأفول. وثانيها، الاطلاع على كيفية التعامل الثقافي معها من زاوية غير عربية أو غير إسلامية، لعل ذلك يكون حافزاً للثقافة العربية على استئناف رحلة البحث عن حقائق هذا الكون. وثالثها، وهو الأهم، الانخراط في حوار الحضارات والأديان في مواجهة مقولة صدام الحضارات والأديان.

البوذية، مثل سواها من المنظومات الفكرية والدينية، محاولة للبحث في أسرار هذا الكون، لكنها، من موقع اعتقادها بوجود ما خارج دائرة الحياة، أي بعد الموت، تركز على ما قبل الموت، وترى أن الحياة ليست مشكلة تحتاج إلى حل، بل هي تجربة تُعاش، بالتالي فهي ليست شأناً يمكن نقله إلى الآخر بالتعليم والتدريس والتلقين، بل هي شأن شخصي وفردي يقتصر دور البوذية فيه لا على تعميم صورة عن العيش الناجح، بل على تعليم الفرد «منهج البحث» عن عيش ناجح.

Twitter: @alqareah

هي تجربة تُعاش بالتأمل والتفكير مثلما هي تُعاش بتربية النفس على القيم. والتجربة الناجحة هي السبيل إلى المعرفة، والمعرفة هي طريق الإيمان.

غير أن تمايزها عن المنظومات الفكرية المهتمة بالكون والوجود والحياة والموت، وهو تمايز متحدر من ينابيع الديانات الشرقية، البراهمانية والكونفوشية على وجه الخصوص، جعلها تبحث عن علاج للعذابات والآلام اليومية، معتبرة أن هذا الأمر هو أكثر إلحاحاً من الشرود في تحليلات ماورائية.

هذا الكتاب هو جولة سريعة في عالم البوذية الفلسفي وفي عالم البوذيين داخل شبه الجزيرة الهندية والصين واليابان. وهو يتناول سيرة بوذا ورحلته في التأمل مع تلامذته في الأديرة والصوامع وبين المريدين من الجماعات الدينية الملتزمة بمنهجه في الحياة، كما يتناول تأثيره على قومه ودور تعاليمه في بنية الحياة الاجتماعية في بلاد الشرق وفي سائر البلدان التي أتيح لها التعرف إلى أفكاره.

شهد الألف الأول قبل ميلاد المسيح نقلة فكرية على الصعيد الديني، تمثّلت في تلمس التوحيد والإيمان بوجود حياة بعد الموت، وكان لهذه النقلة تجسيداتها المختلفة في الفكر اليوناني وفي معتقدات الفراعنة وفي ديانات الشرق، وجرى تتويج ذلك في الديانات السماوية التوحيدية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

في هذه المرحلة من تطور البشرية نهضت حضارات تكاد تكون متشابهة في طرق المعاش والتفكير وفي أنماط العمل وأدواته وفي مستوى السيطرة على الطبيعة ومدى استثمارها ومدى استثمار الإنسان للإنسان، وتأسست في رحمها بنى

Twitter: @alqareah

اجتماعية وعلاقات وقيم تكاد تكون واحدة، وانتظمت المجتمعات في أطر تقوم حياتها أساساً على الزراعة وتدجين الأرض والطبيعة. وكان من الطبيعي أن تتحول الأرض، وهي مصدر الحياة، إلى مادة للصراع يتنازع النفوذ عليها أصحاب النفوذ والسلطة، وكان من الطبيعي أيضاً أن يكون لهذا الصراع منظومته الإيديولوجية وأن تبلغ هذه المنظومة كمالها مع بلوغ الملكيات العقارية مستوى عالياً من النضوج والاكتمال، أي مع المرحلة التي يصح أن نسميها مرحلة الحضارة الإقطاعية.

سبقت الحضارة الإقطاعية سلالة أخرى من الحضارات استندت هي الأخرى لا إلى زراعة الأرض بل إلى «رعيها»، واستسلمت إلى قوى الطبيعة وما وراءها، وشيدت منظومتها الفكرية على الأسطورة والخوارق. وتلتها بعد حوالى ألف وخمسمائة عام أو أكثر على ميلاد المسيح حضارة دجنت الطبيعة وطوعتها بقوة العقل البشري، على ضوء مصالح المجتمعات والدول والأفراد، وبلغت قدرتها على تدميرها حد القلق على مصيرها وعلى مصير البشرية. إنها الحضارة الرأسمالية.

لئن كان الخيط الجامع بين الحضارات هو علاقة البشر بالطبيعة وما وراءها، فقد بدا الإنسان أول الأمر عاجزاً أمامها مستسلماً للقوى الكامنة فيها أو للقوى الغيبية الكامنة وراءها، ثم بلغ من القدرة، أو وهم القدرة، حد الإفراط في تسخيرها وتسخير بني البشر أيضاً سعياً وراء السيطرة والتملك. بين البداية والنهاية قام توازن أساسه وجود وسيط وحاكم وحكم بين البشر في صراعاتهم على التملك، ثم بينهم وبين الطبيعة، إنه الله. الله الذي اختلفوا على حقيقته وعلى تجسيده وعلى صوره المتعددة في الوعي. الحاكم الممسك بقبضة السلطة هو، في هذه الحضارة ظِل الله على الأرض. ثم جاءت الحضارة الرأسمالية لتوسط العقل

Twitter: @alqareah

والقانون الوضعي والدولة، لكن صاحب السلطة فيها هو ظل مصالحه على الأرض.

البوذية قالت، كما سائر الديانات التوحيدية، السماوية وغير السماوية، بأن حقيقة الخلق واحدة، لكن الحكماء يطلقون عليها أسماء متعددة، ولهذا تعددت الآلهة. حكيم البوذية، أو «النبيه»، حفز المؤمنين برسالته على أن يبحثوا، كل بمفرده، عن صورة الله داخل وعيه وتجربته. ولهذا بدا الله، في البوذية، متعدداً بتعدد المؤمنين بها، لكن حقيقته واحدة. وبدت البوذية صرخة في وجه الإحساس البشري بالعجز إزاء الطبيعة وما وراء الطبيعة، لكن حقيقتها، حقيقتها الواحدة، هي أنها شيء يختلف عن الإلحاد مثلما يختلف عن اللاأدرية. إنها إيمان بالطبيعة والخلق والمخلوقات، إيمان بالإنسان.

Twitter: @alqareah

القسم الأول

❖

الفصل الأول

البوذية: نظرة غربية

في كل مرة يصطدم الفكر الغربي
بتناقضات ويسأل إلى أين يمضي به
العلم، يجد نفسه متجهاً نحو الهند، مهد
الميثولوجيا والعلوم الروحية.
دفاتر الجنوب، 1940

البوذية، كفلسفة في نظر البعض وديانة في نظر آخرين ممن يمارسونها يومياً، هي في البداية طريقة في سبر أغوار العالم، وأسلوب كينونة أو صيرورة. تجذبنا بساطتها الظاهرية حين نكتشفها في مهودها، ويغوينا منطق مقاربتها، وتسحرنا وجوه تعبيرها الفني المتعددة. حين تلتقي مع أي من شواهدها الراهنة أو تصادفها تتأكد النظرة وتتسع الرؤية، ويرتسم ممر، ويعود لكل واحد أمر سلوكه أو تجاوزه.

في الزمن الغابر كانت الدروب إلى معرفة الشرق والغرب وفهمهما وقياسهما تتقارب بصورة قياسية. تشهد على ذلك تماثيل وبقايا كتابات، مع أنها لا تكفي لتقديم نظرة شاملة. من الممكن

Twitter: @alqareah

بلا شك أن نرى في بعض الوجوه أو في ثنيات الثوب على التماثيل الأولى للحكيم بوذا أو تماثيل غندارا (Gandhara)، أصداء نحت إغريقي، مثلما تقدم أسئلة الملك ميلندا (Question du Roi Milinda)، وهو يعود إلى القرن الثاني من الحقبة المشتركة، دليلاً وشاهداً على الحوار بين ميناندر (Ménandre) ملك باكتريان «Bactriane» والحكيم ناغاسينا (Nâgasêna)، حيث دفعت إجابات الكاهن الملكَ إلى اعتناق تعاليم بوذا.

I. المستكشِفون

كان ينبغي الانتظار حتى القرن الثالث عشر لكي تتوافر في الغرب معطيات جديدة عن البوذية. قبل عشرين عاماً تقريباً على رحلة ماركو بولو (Marco Polo) البحرية الملحمية أمكن لبعثة غليوم دي روبروك (Guillaume de Rubrouck) الاستكشافية أن تميط اللثام عن آفاق مجهولة. بين عامي 1252 و1255 قاد الأب غليوم فضوله في معرفة عادات الآخرين وتقاليدهم إلى قصر آخر، قصر جنكيزخان في كاراكوروم «Carakorum»، مبعوثاً من الملك سان لويس (Saint Louis)، ربيب قصره وشريكه في الحكم الصليبي، مسلحاً بعلمه وتعدد لغاته. تمكن مبعوث الملك الفرنسي، مراقباً أكثر منه سفيراً، من تجميع معلومات والتعرف إلى العادات، واندهش من اللقاءات غير المتوقعة بين جرمانيين (توتونيين) والكهنة النسطوريين، تفحص الوجوه والأزياء والألبسة وأسهب في وصف العادات والتقاليد، واعتقد في لحظة، أنه أصاب هدفه، سعياً وراء «المسيحيات الضائعة» التي جرى البحث عنها حثيثاً في الحروب الصليبية.

كان الأب غليوم أول من قام بوصف «الوثنيين» ومعابدهم: واكتشف على المذابح قناديل وقرابين، و«رسوماً تشبه الكهنة»،

Twitter: @alqareah

حتى أنه رآها «تردد بلا انقطاع هذه الكلمات: أيها الرب، أنت تعرف» استناداً إلى ترجمة وفّرها له أحدهم. حتى لو كان الرحالة لا يعرف عن الأمر أكثر من ذلك، فقد كان في إمكانه، أن يتعرف، من دون أي عناء، في هذه الصيغة التقريبية، إلى العبارة المقدسة التي تتردد في التأمل والطقوس البوذية، لأنه، كما لاحظ ودوَّن، «حين أسأل المغاربة عن طقوس هؤلاء كانوا يصابون بالصدمة».

II. الرواد

كان ماركو بولو أقل فضولاً إزاء المؤشرات: لقد كان هذا الإيطالي من مدينة البندقية يكتفي بالتنبه بصورة عابرة لوجود «أوثان تصنع المعجزات» داخل قصر قبلاي خان، فتترك ملاحظته القصيرة الانطباع بأن الأمر يتعلق برهبان من بلاد التيبت. إلا أنه يتوقف عند هذا الحد. على طريق المستطلعين من المبعوثين الإيطاليين والكاتالونيين والبرتغاليين أو التجار، رسل «النظام الجديد»، دخل بعض الباحثين في مغامرة التعرف إلى آفاق جديدة، وغدا العالم الهندي يزخر بأشيائه «المستحدثة»، التي تخضع غالباً لتأويلات كيفية.

في الواقع لم ينهض الفضول الأوروبي حقاً إلا في القرن الثامن عشر، مع التدخل البريطاني في ما صار يسمى «جوهرة التاج» الإمبراطورية الهندية. كان شارل ويلكين (Charles Wilkin) قد نشر عام 1783، بدعم من وارن هاستينغ (Warren Hastings)، الحاكم العام في أيامه، الترجمة الإنكليزية الأولى للباغافات جيتا ***«Bhagavat-Gîta»*** الهندوسية ، كما أن وليم جونس (William Jones)، قاضي كالكوتا «Calcutta» في حينه قد أسس «الجمعية الآسيوية في البنغال» الشهيرة. في 1801 ـ 1802 نشر أنكتيل دوبيرون

Twitter: @alqareah

(Anquetil Dupeyron) الترجمة الفرنسية الأولى لنسخة فارسية من الـ *«Upanishad»*. هكذا انطلقت العملية وكانت غلّتها وفيرة.

منذ ذلك الحين أخذت تترافق دراسة اللغات، السنسكريتية منها على وجه الخصوص، بجمع كمية هائلة من المخطوطات ونقلها إلى لندن وباريس. فقد راح الإنكليزي بريان هودسون (Brian Hodgson)، المسافر إلى نيبال عام 1820، يجمع هناك نصوصاً بوذية قديمة، في حين عكف المجري ألكسندر كسوما (Alexandre Csoma) من كوروس «Koros» على البحث، داخل أديرة التيبت، عن أصول لغته الأم. وقد وقع جزء من الوثائق التي جمعها هودسون بين يدي أوجين بورنوف (Eugène Burnouf)، اللغوي المتحمس والسنسكريتي المميّز الضليع باللغة الهندية الدينية القديمة وباللغة التيبتية، فترجم «شريعة بوذا المقدسة Sûtra du Lotus»، ونشر معها مدخلاً لدراسة تاريخ الهندوسية الهندية، وبات الدرب مفتوحاً، منذ ذلك الحين، أمام إشباع الفضول الأوروبي والمخيلة الشعبية، وكذلك أمام الدراسات المعمقة للغات التي تنتشر البوذية من خلالها وللنصوص التي تحمل عقيدتها.

منذ ذلك الحين قامت أشكال من التبادل المحصورة بصورة أساسية في الأوساط الثقافية والعلمية، في حين نهضت، حوالى 1880، حلقات بحث فلسفية وترسخت بصورة جدية بالإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية والدانماركية. وتعددت الرحلات نحو المصادر الهندية والسيلانية (السنغالية) عن البوذية، كما ازدهرت الأبحاث الداخلية طيلة القرن التاسع عشر في الأوساط الفنية والأدبية. وعكف لغويون مرموقون على ترجمة النصوص التأسيسية، التي نُشرت خصوصاً في إنكلترا ضمن سلسلة **«كتب مقدسة من الشرق** *Livres Sacrés de l'Orient*» وبواسطة «جمعية النصوص الهندية». معظم هذه المؤلفات لا يزال قيد التداول

Twitter: @alqareah

ويُستعمل بصورة منتظمة. في موازاة ذلك حثَّ طلاب بورنوف الخطى وراء أستاذهم في الكوليج دوفرانس وصار للمدرسة المهتمة بالدراسات الهندية شهرة عالمية. بعد عام، جاءت موجة، خجولة في البداية ثم عارمة، من نصوص تيبتية جرى تعميمها تجارياً.

كانت الرومنطيقية، بمعنى ما، وبلا شك، المخيال الفني الذي نهل من ينابيعه البعيدة شعراء عثروا فيها على كلمات السر التي فتحوا بواسطتها تلك الأبواب المجهولة. عام 1879 وغداة عودته من رحلة إلى الهند نشر إدوين أرنولد (Edwin Arnold) «نور آسيا *La lumière de l'Asie*» مستلهماً النسخة الإنكليزية من كتاب «لاليتافيستارا *Lâlitavistara*» الذي يتناول حياة بوذا من سنوات عمره الأولى حتى يقظته التبشيرية، وقد أحرز نجاحاً مباشراً في إنكلترا الفكتورية كما في أميركا. كما أن وولت ويتمان (Walt Whitman) وهنري ثورو (Henry Thoreau) , اعترفا فيما بعد بفضل النصوص الهندية المقدسة عليهما.

كان للجمعية الدينية الفلسفية التي أسسها الكولونيل هنري أولكوت (Henry Olcott) وإيلينا بلافاتسكي (Elena Blavatsky)، كان لها أنصارها، وكان مؤسساها قد تركا الانطباع، خلال رحلتهما إلى سيلان (سيريلانكا حالياً) عام 1880 الالتزام في حضرة راهب بوذي، أمام أحد تماثيل بوذا، باحترام المبادئ الخمسة الأساسية المعتمدة لدى أي بوذي إلى أي مدرسة أو رهبنة انتمى. للمفارقة، أشعل الاهتمام الغربي بالعقيدة البوذية اهتماماً مطرداً في الأوساط العليا من سيلان وخارجها، التي كانت تتباهى بحداثة تعرفت إليها بالاحتكاك مع الإدارة البريطانية.

منذ بداية القرن التاسع عشر، استغرق كل من فريدريك ڤون شليغل (Friedrich von Shlegel) وأرثور شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) وفي دراسة النصوص الكبرى المتوافرة،

Twitter: @alqareah

فـأغنيا بذلك أفكارهما وأسهما في التعريف بهذه الفلسفة المختلفة عن الكلاسيكيات الأوروبية. ولئن كان أوديلون ريدون (Odilon Redon) في فرنسا قد مهر بتوقيعه لوحة أخاذة عنوانها «بوذا»، فإن أرثور رامبو (Arthur Rimbaud) لم يكتف بهذا التكريم «للشرق والحكمة الخالدة الأولى».

III . الباحثون

أخذ يتضح هذا الاتجاه ويتأكد مع اقتراب القرن العشرين وظهور أعداد كبيرة من الترجمات والأبحاث والدراسات النقدية. فقد استقبلت شيكاغو عام 1893 «برلمان الأديان» الأول، حيث انعقدت علاقات وثيقة بين البوذيين من اليابان وسيلان وأوائل المؤمنين بهذه الديانة في أميركا وأوروبا. على المقلب الآخر من العالم، في المساحات الواسعة غير المعروفة جيداً من أوراسيا «Eurasie»، غاص باحثون ومكتشفون في ما كان يعتبر الأراضي البكر، واندفعوا إلى الأقاصي الممكنة على تخوم آسيا العليا، تشدهم إليها شهرة «لهاسا Lhassa»، «المدينة المحرمة». كان من شأن علاقاتهم في السفر والحكايات عن الرحلات الاستكشافية المجنونة تغذية الأساطير والخرافات، ولم يبهت سحر الشرق الرمزي الخرافي أبداً. وأخذت ترتسم بعد ذلك الطرق إلى كاتمندو «Katmandou».

كان ينبغي، في المقابل، انتظار القرن العشرين لكي ينغرس تراث بوذي حقيقي على نطاق واسع في العالم الغربي، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، كما لو أن اللغز النبوي في القرن السابع، المنسوب إلى كبير الحكماء والسحرة في هملايا بادماسامبهافا «Padmasambhava» قد تحقق في قوله:

«عندما يحلق عصفور من حديد
عندما تعدو الجياد على العجلات

Twitter: @alqareah

وينتشر سكان بلاد البود «Bod» في العالم
كالنمال
وتدق تعاليم للبوذية أبواب بلاد الجنس الاحمر»

أهل التيبت يسمون أرضهم «بلاد البود»، ولا أحد يعرف أبداً تحديد معنى «بلاد الجنس الأحمر»، إلا أن المصادفة تثير الدهشة.

بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين أدى تطور وسائل النقل إلى تسهيل المهمة، فتحول المفتونون بالفن إلى مكتشفين على غرار إميل غيميه (Émile Guimet)، الذي أسس في باريس متحفاً يحمل اسمه، وهو المكان الأسطوري الذي تحوَّل إلى مستنبت للمواهب المتنوعة. هؤلاء المدفوعون بالفضول والحب المهووسون بالدقة جابوا أراضيهم المختارة في اليابان والهند والصين، في ظل ظروف صعبة في الغالب، حيث كانت اللقاءات والاكتشافات تبدد، على نطاق واسع، في نظرهم متعة السفر. كان عشاق الآفاق الواسعة يأخذون كامل وقتهم حيث لم يكونوا في ذلك الوقت بحاجة إلى تأشيرات دخول، وحيث كانت تكفي أوامر المهمة والتبادل حتى لو لم تكن مغامرة الرحلات البحرية مريحة. وهكذا نشأت مراسلات وتبادلات تستكمل بها الأشياء الثمينة اليوم، رائعة لكنها خرساء، تلك هي متاحف أوروبا وأميركا التي توفر، فضلاً عن ذلك، لمحات غنية عن النظرات المتقاطعة إلى عوالم قيد الاكتشاف.

هؤلاء الرحالة يسجلون الملاحظات في سفرهم الطويل ويُلزمون أنفسهم بمتابعة الصلات والعلاقات بتفصيل، بل بتفصيل دقيق، وكتابة الأحداث والعقبات واللقاءات التي ينسجون منها يومياتهم بعيداً جداً عن دروبهم المطروقة. ملاحظاتهم ومراقباتهم منارات في طُرق قد لا توصل إلى مكان، وعلى أوراقهم رسوم

Twitter: @alqareah

لمجاري الأنهار أو الوديان المجهولة، يملأون بياضاتهم الشاسعة كمجهول على خرائط لا تزال غامضة. نيكولاي برجيفالسكي (Nicolaï Prjevalsky)، لويس دي كارنيه (Louis de Carné)، وليم روكهيل (William W. Rockhill)، غبريال بونفالو (Gabriel Bonvalot)، هنري دورليان (Henri d'Orléans)، شارل أود بونان (Charles-Eudes Bonin) يفتحون الطريق أمام ڤيكتور سيغالان (Victor Segalen) وجيلبير دو فوازان (Gilbert de Voisins)، ألكسندرا داڤيد نيل (Alexandra David-Neel)، نيقولاس روريش (Nicolas Roerich)، جيوسيبي توسي (Giuseppe Tucci)، أندريه ميغو (André Migot)، وأمام كثيرين ممن حذوا حذوهم. آخرون سلكوا طريقاً معاكساً، كما في المرايا المقلوبة، غونبوجاب سيبيكوف (Gonbodjab Tsybikov) أو إيكاي كاواغوشي (Ekai Kawaguchi) شاركوا في عمليات التنقيب هذه على منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين، تقودهم ذكريات خامدة لحكايات الرحّالة الصينيين المجتهدين فاهشين (Fa-Hsien)، سانغ يان (Sung-Yun) أو سوان تسانغ (Hsüan-Tsang)، إلى البحث، منذ القرن السادس، عن الينابيع الأولى لديانتهم. على مر العصور، لم تتكرر العملية ذاتها: ففي حين انخرط البعض في بحث عن البدايات الدينية، راح آخرون من بعدهم يسعون وراء رغبة في المعرفة مفعمة بروح المغامرة. غير أن الجميع تركوا، ربما من دون أن يدروا، عبّارات صغيرة بل جسوراً، وما من أحد اليوم إلا ويقتبس عنهم ويعود إليهم ليكتشف ما إذا كان اللهب يختلف بين البارحة واليوم أو ما إذا كان لهب الأمس محرقاً.

IV. العابرون

مبادرات فردية أصيلة آتت ثماراً غير متوقعة. وهكذا فإن

Twitter: @alqareah

عازف الكمان أنطون غيث (Anton Gueth) دخل عام 1903 في معبد سيريلانكي، وأسس فيه عام 1911 المنسك الإيسلاندي Island Hermitage، الذي صار مركزاً حيوياً للترجمة والبحوث بل للدراسة، خاصة للمهتمين بالتيراڤادا Thêravada. كما تأسست جمعية داماباداDhammapada عام 1922 في برلين لأوائل المؤمنين في «المركبة الصغيرة»، والجمعية البوذية في لندن عام 1924، وكان من أهدافها «نشر مبادئ البوذية والتعريف بها، والتشجيع على دراستها وممارستها». من أبرز أنصارها المؤمنين فرنسيس يونغسبوند (Francis Younghusband)، الضابط السابق الذي قاد الحملة البريطانية على لهاسا عام 1904.

تراجعت وتيرة الرحلات والدراسات والأبحاث بسبب الأحداث التي تعاقبت على أوروبا في ثلاثينيات القرن العشرين والتي أقحمت الولايات المتحدة الأميركية في معمعة الحرب العالمية الثانية. رغم ذلك، وجد موظفون كبار من الرايخ الألماني، خلال مرحلة النهوض النازي العارم، متسعاً من الوقت وكثيراً من الإمكانات المالية والبشرية ليقوموا بغزوات «سرية» إلى هملايا بحثاً عن أدلة على تحدر الألمان من السلالة الآريَّة. هنريش هارر (Heinrich Harrer) جمع بعض المعلومات، وكان واحداً من فريق البعثة، ولهذا السبب بالذات تمّ اعتقاله في معسكر بريطاني داخل الهند. بعد فراره بلغ التيبت ثم غادرها خلال الغزو الصيني. غداة الحرب صار كتابه «**سبعة أعوام في التيبت** *Sept ans au Tibet*» يذكّر، كما في عشية الحرب، بكتاب جيمس هيلتون (James Hilton)، «**الآفاق الضائعة** *Les horizons Perdus*»، ثم أصدره مع الصور فرانك كابرا، (Frank Capra). ربما كان ذلك تعبيراً عن الإيمان بهذه الوهاد العصيَّة حيث يعيش الإنسان سعيداً منسجماً مع الطبيعة والحيوانات ومع نفسه والبشر من أمثاله. لكن، لماذا كان يتلون هذا الحلم، في نظر الغربي، غالباً، بألوان البوذية.

Twitter: @alqareah

حنين، بلا شك، إلى ملاذ أو رغبة في فجر جديد، بعد عهد طويل من الجنون الدموي. أعيد اكتشاف سيدارتا «*Siddharta*»، رواية هرمان هس (Hermann Hesse)؛ وكتب كثيرة، قليلة القيمة وواسعة الانتشار كانت تروِّج للمعجزات والعجائب التي جرفها ليل الأزمنة في أنهار بعيدة مقدسة ووضعها بين أقدام الحكماء وحافظي الأسرار؛ جمهور جديد محصور العدد اكتشف بدوره، داخل خبايا المكتبات، شبكة من علاقات السفر الممتعة ونصوصاً عويصة ووصفاً لمشاهد على درجة عالية من الفخامة. فصار حلم الشرق أبعد من حدود البحر المتوسط، وتجاوز البوسفور، واستعاد إلى ذوق العصر وميوله الطرقات المشوشة في كتاب «**رحلة بحرية صفراء** *Croisière jaune*»، والمخاطر التي يتضمنها كتاب «**شيطان هملايا** *Démon de l'Himalaya*». انتثر الحلم على رياح الهند الزهرية واندفع نحو سريلانكا واجتاز أفغانستان وتايلاند، ليصطدم بالأبواب المحرَّمة في بورما والصين والتيبت وبوتان «Bhoutan»، وغامر وصولاً إلى اليابان وكوريا وانتهى مهزوماً في كاتماندو. وفي كل مكان منها كان بوذا موجوداً.

قبل ذلك بسنوات كان تيار معاكس، محصور فحسب في «عابرين» مشهورين، من أساتذة معروفين ومحترمين في معابدهم وأديرتهم البعيدة، يدعون إلى تبادل المعرفة في ندوات وحلقات دراسية مع مجموعات صغيرة من ذوي الاهتمام في أوروبا أو في الولايات المتحدة بصورة خاصة. في مقابل ذلك، وفي غمرة غليان التحرر والاستقلال ومع الحروب في الهند الصينية، وجد مهاجرون ملجأً لهم في فرنسا وأميركا: هؤلاء المقتلعون من جذورهم تحلَّقوا حول تراث ديني وجعلوا منه نقطة انطلاق لرحيل مُقبل.

الجماعات الرهبانية التي ما زالت تعيش في بعض البلدان

Twitter: @alqareah

الآسيوية لم ترسِّخ وجودها في الغرب إلا في نهاية الستينيات من القرن العشرين، ثم عززته خلال السبعينيات حين أقامت حولها أطراً في إنكلترا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا، جمعت فيها مؤيدين ومناصرين ومجموعة متنامية من المؤمنين. وقد أدت هجرة 1959 التيبتية، بعد مضي عقد آخر من السنوات إلى إنشاء مراكز فعلية للدراسات البوذية يديرها مدرّسون مجرّبون يقيمون في بيوت دينية قديمة، بعد تبديل وجهة استعمالها، من أديرة ورهبانيات وحتى بيوت ريفية مهملة بسبب قلة العناية. على هامش الحياة المدنية، أمكن لهذه الأماكن الرفيعة، للمفارقة، أن تنتعش وتتجدد بحقنها بدم جديد قادم من الشرق.

V . القادمون الجدد

تشكّلت، في الوقت ذاته، داخل المدن، حلقات صغيرة كان يلتقي فيها بصورة دورية عدد من الجمعيات، بهدف ثقافي أو روحي، وبرغبة في التعرف على آفاق جديدة، وفي تقديم العون لمهاجرين قادمين من بعيد، وفي إضفاء مزيد من المعنى على وجودهم الشخصي. أخذت البوذية تتسلل إلى نسيج الحياة اليومية أمام أنظار ملؤها الدهشة أحياناً للقرويين أو المقيمين، وذلك بفعل ما في هذه الديانة القادمة من بعيد من أفكار دقيقة، وفي ظل مُناخ يسوده التفلت من التقاليد الدينية الأوروبية والتعلق بالأشياء الغريبة والجديدة. غير أن ذلك حصل في جو من التعايش الودود والاحترام المتبادل.

هل كُتب لهذا التجذر الهادئ، وربما العابر، في تربة مختلفة ظاهرياً هي تربة المجتمع الغربي المعاصر، أن يشكّل الفرصة الثانية لموعد مفقود منذ زمن بعيد، واللحظة المناسبة لتحقق نبوءة قديمة، أو ببساطة علامة قلق هو في الحقيقة أكثر عمقاً

Twitter: @alqareah

بكثيرٍ مما يبدو ظاهرياً؟ من الأفضل أن نترك الاحتمالين الأولين جانباً، لأنهما ليسا أكثر ملاءمة من تلك الأسئلة العشرة الشهيرة التي كان «النبيه» بوذا يرفض دوماً الإجابة عنها. أما الاحتمال الثالث فهو يشير إلى انطباع يحتمل أن يمضي إلى ما هو أبعد من مزاج العصر.

إذا كان ينبغي إرجاء الحكم على ما إذا كان هذا اللقاح غير المتوقع سيفعل فعله أم لا، وعلى ما إذا كان أثر المجموعات البوذية الصغيرة أكثر من مجرد ذكريات، إلا أن البوذية تمكنت، خلال نصف قرن، من أن تحجز لها، وبأشكال شتى، موقعاً في المشهد الروحي في الغرب. هذا الموقع متواضع بلا شك، لكن أتباعها يمشون بخطى هادئة، وهم، بالمناسبة، لا يترددون في الظهور علناً. وفي ما يتعدى النزوع إلى كل غريب وجديد، فإن أحداً لم يجد ما يرضيه في تنوع الجماعات الطائفية الذي يمكن أن يشبه تعدد حالات فردية يفوق مجموعها مجرد حاصل جمعها. كما أن أحداً لم يكتشف في ممارسة التأمل توازناً أفضل ولا تعويضاً عن ضغط الحياة اليومية. في حين شعر البعض بنوع من الطمأنينة إزاء شخصية لا يساويها في صفائها إلا قوة في داخل النفس.

إن الاطلاع على البوذية ودراستها دفعت آخرين، وهم قلة من غير شك، نحو تنقيب داخل النفس لا يعمقه إلا نظام صارم وبإشراف معلم مستنير. ولئن كانت اللقاءات عرضية ومفاجئة فإن ما ترتب عليها من قرارات لم يكن كذلك. هؤلاء المسافرون الذين اغتنوا بمعرفة جديدة تقاسموا، بعد عودتهم، المعلومات المكتسبة، مع مراكز دينية حديثة النشوء أو في إطار مؤسسات التعليم العالي الكلاسيكية.

أيّاً كان الأمر، فإن البوذية في نسخاتها الغربية الحديثة

Twitter: @alqareah

أبدت مرونة فائقة في صيغ تكيفها المحترمة مع الوسط المحلّي، فتمكنت، ربما بسبب ذلك، من اكتساب مودة أوساط مختلفة، من الباحث العلمي إلى النجم السينمائي، من الممرضة إلى المهندس مروراً بالطبيب والناشط والفنان والناسك، من غير أن نتجاهل كل أولئك المنخرطين في صلات جمعيات التوأمة أو المساعدة المباشرة، الذين وجدوا في أشكال التبادل هذه فرصة لتوسيع الأفق والشعور بالاغتناء بهذه التجربة.

في الوقت الذي تجهد فيه «القرية الكونية» العزيزة على قلب ماك لوهان (MacLuhan)، في سبيل إقامة السلام، أو على الأقل علاقات حسن الجوار بين مختلف القبائل والجماعات، ومن فرط المساجلات في حمأة ضجيج الحواجز وغضبها حول عمليات التمدين المتسارعة التي يؤججها «صدام الحضارات» العقيم، يغيب الزمن عن الأساسي والجوهري، الذي يذكِّر به وجود قرى معششة في ظلام الغابات الاستوائية أو معلّقة في قمم الجبال، ومعابد معزولة ومحجات يرتادها البشر منذ عصور، وأزهار وقرابين على تماثيل بوذا تحت قبب السماء الأكثر تنوعاً. لا يعني ذلك أن صورة بوذا الكُليّة الحضور يمكن أن تشكّل ضمانة لدرء الآلام عمن يعيش على هذه الأرض. غير أن في إمكان الدينيين والعلمانيين، الرجال والنساء، حتى لو لم يكونوا في منجّى من تقلبات الدهر، أن ينهلوا من بسمة يفترُّ عنها ثغر بوذا سبباً إضافياً للمثابرة والاستمرار. ولن يكون ذلك إلا لأن تراث «النبيه» بوذا شاطرهم عبر الأجيال شرارة الطيبة والرأفة والحكمة والجمال الضروري لكل واحد وواحدة من أجل رعاية الكرامة الإنسانية وتهذيبها. إن البوذيين كلهم يمثّلون، كلٌّ على طريقته رُسلاً لهذه المهمة.

Twitter: @alqareah

الفصل الثاني

من أين جاءت البوذية؟

على كل فرد أن يرى أن قدرة الكون
الخلاّقة موجودة في داخله هو. وكل واحد
يخلق الحقيقة وعليه أن
يضطلع بمسؤولياتها.
بوذا شاكياموني

ربما يكون السؤال مخادعاً. فالإجابة عليه تختلف باختلاف أصحابها. أما الواقع فلا ينقصه الوضوح: ابن حضارة هندية قائمة اخترقتها تيارات عديدة وعميقة. إنه سيدارتا غوتاما (Siddhârta Gautama)، الذي لم ينبثق من لاشيء، لم يصعد إلى السماء ولم ينزل منها، إنه يمشي على الأرض وتعاليمه تعني من يشبهونه. منحه مداه الشخصي وازدهار فلسفته مكانة استثنائية، رغم أن العصر الذي عاش فيه، أي الرابع ـ الخامس قبل الميلاد، كان يزخر بالشخصيات القوية.

في الغرب من شبه الجزيرة الهندية دوَّن هيكاتيه دو ميلي (Hécatée de Milet) ملاحظاته في كتاب «**رحلة حول العالم**

Twitter: @alqareah

Voyage autour du monde» ولم يصل منه إلينا إلا شذرات، في حين كان بَرمِنيدِس (Parménide) يجيل التأمل والتفكير في الكائن ككائن. وإذا لم يكتب لمؤلفاتهما أن تخترق العصور، فإن أفكار فيثاغورس (Pythagore) وهِيراكليتس (Héraclite) قد أثّرت في تطور الفكر الفلسفي لدى من أعقبهم من المفكرين. فقد شهد العصر الذي سمي عصر پيريكلس (Periclès)، (495 ـ 429) ق.م.، ازدهار حياة فكرية وفنية متألقة في أثينا، حيث حكم على الفيلسوف أنَكساغوراس (Anaxagore) بالنفي لأنه أكد عدم وجود علاقة بين الشمس والإله هيليوس (Hélios)، كما أرغم سقراط على تجرع السم تحت ذريعة اتهامه بإفساد الشبيبة، وصار على تلميذه أفلاطون أن يضطلع بجمع أفكاره ونقلها.

وعلى الجانب الشرقي من القارة الهندية لم تتوصل الممالك المتحاربة إلى فكّ اشتباكاتها على الأراضي الصينية. وإذا كان كتاب «**التحولات** *mutations*»، المنسوب إلى الإمبراطور الأسطوري فوهشي (Fu Hsi)، قيد التداول كأداة للألوهية، فإن المعلم كونغ (Kong)، على ما يقول كونفوشيوس (Confucius) (551 ـ 479 ق.م.) قد ترك عليه طويلاً بصماته القاسية. وقد أفضت النقاشات مع طلابه ومريديه إلى ظهور الكونفوشية التي رافقت، بالعُسر واليُسر، منذ ذلك الحين، التطور المضطرب أحياناً للمجتمع الصيني، وأنبتت فروعاً لها داخل شبه الجزيرة الكورية وفي الجزر اليابانية. لقد شكّل اللقاء بين كونغ زو (Kung-tzu) ولاو زو (Lao-tseu)، وهو لقاء تخيلي أكثر منه لقاءً واقعياً، فرصة قدم فيها الأول للثاني شهادة احترام رفيع المستوى. هل هو احترام الفلسفة للحكمة؟ مهما يكن من الأمر، فإن الأصداء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم عن تلك المرحلة المكتملة تبيِّن قوة فورة فكرية لم تكن مميّزة على الصعيد الإنساني.

Twitter: @alqareah

لم تبق الهند مدينةً بالفضل لهذين النمطين من التفكير؛ ذلك أن تاريخها الطويل يشير إلى وجود نمطين من الحضارة متحاذيين، الدرافيدية «la dravidienne» (نسبة إلى شعوب الدراويد الهندية في الجنوب)، والهندوآريّة في الشمال. حتى لو لم تشكّل دقة التسلسل التاريخي امتيازاً لمجتمع يميل نحو الأبدية أكثر من ميله نحو الإفراط في التدقيق اليومي، فإن آثار الموهنجودارو «Mohendjo-Daro» والهارابا «Harappa» تشهد على قِدم الإرث الموزع بلا شك لحضارة ما زالت غير معروفة جيداً، تمتد من شرق المتوسط حتى سهول الغانج، حيث يتوافر عدد من القواسم المشتركة بين الحثيين «les Hittites» والسومريين والسيتيين «les Scythes» (جنوب روسيا) وحتى الأيبيريين. ولن تكون فورة الأفكار قليلة الشأن في الأرض الهندية حين سيظهر ذلك الشخص الذي سيصبح اسمه «النبيه»، أي بوذا.

I. الهند القديمة

انطلق الاجتياح الآريُّ (الهندو - أوروبي) من الشمال الإيراني الأفغاني نحو تربة خصبة أصلاً وقديمة من حضارة الهندوس. حصل ذلك على مشارف القرن العاشر قبل الميلاد، وأحدث انقلاباً في الوضع القائم، من غير أن يلقى، في الظاهر، أية مقاومة. يُشار هنا إلى أن كلمة آريّ لا تعني أبداً عرقاً بعينه أو شعباً محدداً، بل هي تعني في الأصل، وببساطة، «النبيل» أو بالأحرى «الأمين». وكان الغزاة الهندو - أوروبيون الظافرون يتميّزون هم أنفسهم عن السكان المحليين المهزومين. وإذا عدنا إلى معطيات علم الآثار لوجدنا أن القادمين الجدد حملوا معهم ثقافة متطورة نسبياً، أمكن لها أن تتكيف مع العادات والتقاليد المحلية وأن تدمج جزءاً منها في بنيتها.

Twitter: @alqareah

وصل إلينا تاريخ هذه المنطقة، بصورة أساسية، من خلال النصوص. وفي هذا الإطار تمثل الـ «ڤيدا *Védas*»، أي الكتب الهندية المقدسة حقلاً واسعاً من المعرفة أو العلم: «معرفة مرئية» لدى الريشيس «Rishis»، أي العرافين الذين كان يأتيهم «الوحي» في جلسات التأمل وممارسة اليوغا. وإذا كان التراث الأدبي يبتغي «خلق الآلهة» ويقوم بدايةً على الانتقال الشفوي، فإنه بدأ يتحول إلى أدب مكتوب مع بداية القرن الثامن قبل الميلاد، على وجه الاحتمال، ومرمّز بلغة قديمة. وكان على النحويين وعلماء الدلالة في العصور اللاحقة، ومنهم ياشكا «Yaska» وبانيني «Pânini» وهما الأكثر شهرةً، أن يصوغوا «اللغة الكاملة أو التامة» أي السنسكريتية، اللغة المقدسة للديانة البراهمانية. وهكذا تثبّت هذا التراث منذ تلك الأزمنة القديمة، منتقلاً عبر العصور والأجيال، حافظاً الهيكل الحقيقي للتاريخ الهندي.

إذا كانت السنسكريتية لا تزال تشكّل، بامتياز حتى الآن، لغة البراهمانيين ولغة طقوس العبادة، فإن اللغة العامية تطورت طبعاً في موازاتها وتفرعت إلى لهجات متعددة، منها لهجة البراكريت «Prâkrit» في البداية التي تحدرت منها الاصطلاحات التعبيرية السائدة اليوم. شكّلت الريغ ـ ڤيدا «Rig-Véda» والياجور ڤيدا «Yajur-Véda» والساما ڤيدا «Sâma-Véda» النصوص الأولى، ثم أُضيف إليها في مرحلة لاحقة، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، الأثارڤا ڤيدا «Atharva-Véda»، وذلك على خط مستقيم من الانتفاش الهندي التقليدي، ومنها نشأت بالآلاف فروع ومسائل من نصوص نقدية وتأويلية يعبّر تعقدها تعبيراً دقيقاً عن عطش لا يُروى إلى البحث الروحي.

هذه «الكتابات» وجّهت مجمل الحياة الاجتماعية حيث تحتل التضحية في سبيل الآلهة مكانة مركزية. لقد كان مجمع الآلهة

Twitter: @alqareah

القديم، على ما نظن، ثرياً بصورة استثنائية، وكانت حالات الوجد الرباني على مقدار حالات تشخيص قوى الطبيعة، مقرونة بخلق العالم أو العوالم. حتى لا يفقد هذا الخلق توازنه، كانت الأرثوذكسية تملي على البشر إتّباع الطقوس بحذافيرها، لأنها هي الضمانة. أما الكهنة فكانوا في البداية يستعملون تلك الكتب، التي كانت تعتبر ذات جوهر ديني، بمثابة دليل لتحاشي ارتكاب الخطأ في احتفالات القرابين، التي لم تكن تتطلب في البداية معبداً أو مذبحاً، أي مكاناً متحدراً من إرث بدوي قديم. كان يكفي لذلك وجود مكان مطهر ومكرس لتلك الطقوس.

في ظل التراتب الكهنوتي، كان لكل مستوى مصنَّفه وكتابه، فكان المنشد الذي يتولى دعوة الآلهة إلى الأعياد الدينية، يعتمد على نص ريغ ڤيدا، الذي يضم الأناشيد والعبارات المخصصة. أما المنشد الذي يتولى مرافقة تحضير القرابين والسوما، فكان يعتمد في تنشيط ذاكرته على الإكسير المقدس أي ساما ڤيدا، بينما يعتمد من ينجز الطقس بذاته على الياجور ڤيدا «Yajur-Véda». أما أثار ڤاڤيدا «Atharva-Véda» فكان مخصصاً، في نهاية الأمر، لكبير الكهنة موجِّه الاحتفال ومديره، ثم لكهنة النار الذين يختمون باستقبال الثُّلة المختارة. هذه الكتب القديمة تمثّل نصوصاً تفوق بحجمها ستة أضعاف حجم التوراة، ولئن جرى تبسيط الطقوس على مرّ الزمن، إلا أن كتب الڤيدا ما زالت تشكّل الركيزة الأساسية. «ليس هنا غير «حقيقة» واحدة، لكن الحكماء يطلقون عليها أسماء مختلفة»: في هذا الإثبات الجازم الذي يتضمنه ريغ ڤيدا، ربما يكمن مفتاح تعدد الآلهة في الأرض الهندية.

إن ظهور المآثر الكبرى، لا سيما ملحمة المهابهاراتا «*Mâhabhârata*» والرامايانا «*Râmâyana*» يعود أيضاً إلى تلك المرحلة من التاريخ. ففي المعركة الشهيرة بين الكوراڤا (Kaurava)

Twitter: @alqareah

والبانداڤا (Pândava) في أول قصيدة ملحمية، يمكن العثور على أصداء نزاعات عائلية، حيث الخصوم هم أبناء عمومة، وربما نزاعات على السلطة بين الشمال الآريّ والجنوب الدراڤيدي. هذه النصوص الكلاسيكية ذات القيمة الشمولية تشكّل، بمعنى ما، سجلاً تاريخياً، وهي فوق ذلك أيضاً صروح أدبية مشيّدة داخل قصور الأمراء بدروع جوّالة منذ أيام بوذا. ولم يعد من النادر اليوم أبداً رؤية هذه المشاهد الممثلة في الأرياف الهندية، بمعزل عن حملات محو الأمية الجارية التي تطال ممثلين وراقصين لا يعرفون القراءة والكتابة. في المقابل، يمضي هؤلاء ذاتهم أياماً وليالي في فِرق تُنشد، عن ظهر قلب، مقاطع بأكملها من هذه التحف الكلاسيكية، من غير أن يرتكبوا أي خطأ في أدائهم الغنائي أو في قراءة الشعر.

II. البراهمانية

البراهمانية نوع من الانصهار بين الڤيدية والديانات القريبة من الآريّة، وكان ميلها إلى التجسد في طقوس يتعاظم مع تعاظم الدور الأساسي للبراهمانيين كأسياد للتضحية، أي الطقس الذي لا يُستغنى عنه في مسيرة صالحة للعالم وللمجتمع. وليس سهلاً رسم حدود واضحة بين البراهمانية والهندوسية، فهما وجهان لنظرة متشابهة يُكمل الواحد منهما الآخر. غير أن فكرة البراهمانية بالذات لم تكن رائجة قط بين المهتمين الأساسيين الذي يعرّفون أنفسهم بأنهم هندوسيون. المرور من العبارة إلى الأخرى كان يتم هكذا بصورة طبيعية، عبر بعض الوجوه من مبدأ تتعذر معرفته، لأنه بلا بداية ولا نهاية، لكنه مجسد بآلهات متعددة تفضي كلها إلى الرفعة والعَلَاء، في حين تختفي وجوه أخرى في الحواشي الغامضة للڤيدية. صور ثلاث للإلهي تبرز في هذا التعدد، براهما

Twitter: @alqareah

(Brahmâ)، الذي يخلق شيڤا (Shiva) الذي يدمِّر وفيشنو (Vishnou) الذي يديم. إذا كان براهما هو الخالق بامتياز والأول بين أقرانه، فإن شيڤا يلعب دوراً مزدوجاً، فهو يُحيي ويُميت، في حين يمثّل ڤيشنو المحرّك الذي يحرّك عملية الخلق هذه التي تعتبر الكائنات البشرية وغير البشرية ممثّليها.

على خلاف التصورات التوحيدية، كانت الهندوسية، أو «الشريعة الخالدة *éternelle loi*»، كما يُعرّف بها معتنقوها، تقيم وزناً كبيراً لشاكتي «Shakti»، أي الطاقة الأنثوية بصورها الأكثر تنوعاً، والمقصود في ذلك القوى الدينامية للآلهة، «الزوجات» أو الأسس التي يتعطل فعل الآلهة من دونها. تتغير أسماء هذه الآلهة الأنثوية تبعاً لدورها في كل لحظة: بارڤاتي (Pârvati)، شري (Shrî)، كالي (Kâli)، دورغا (Dûrga)، كونداليني (Kundalinî)، راضا (Râdhâ) وغيرها أيضاً، كلها في النهاية بنات ديڤي (Devî) أو أصداؤها، وديڤي هي الإلٰهة أو «الطاقة» التي تقدم نفسها بما يفضي إلى اعتبارها الإلٰهة الأسمى... ومن غير المفيد التأكيد، في ظل هذه الجمهرة الشديدة التنوع، أن لدى كل واحد وواحدة ما يذكي إيمانه، من غير أن ننسى أبداً الأڤاتارا (Avatarâ) أو التجسدات المتنوعة للآلهات «النازلة» على الأرض من أجل مساعدة من يعيشون عليها، وتأمين القليل من النظام في مجتمع يشكو في المحصلة من الاضطراب.

مع ذلك، كان يوجد في تلك الأزمنة القديمة مروحة واسعة جداً من المدارس الفلسفية خارج التيار الرئيسي، التي يتعدى عددها السبعين، كما تدل النصوص، وكان بعضها يعد «هرطوقياً». من بين هذه المدارس اليانية «Jaïnisme» التي كان لها علاماتها الفارقة، وفي تراثها سلالة من عشرين تيرثاكارا «Tîrthakara» أو «عابري المخاضة»، وكان الرابع والعشرون منهم، الحكيم ڤرداما‌نا

Twitter: @alqareah

(Vardhamâna)، الملقب ـ مهاڤيرا (Mahavîrâ) أو «البطل الكبير»، معاصراً لسيدارتا، وكانا قد تتلمذا معاً، في إطار البحث الروحي، على يد غوشالا (Goshâla)، الناسك المعروف في زمانه الذي رفض طلابه نظام الطوائف الاجتماعية القائم في مجتمع براهماني شديد الصرامة.

III. اليانية

لم تكن اليانية هرطوقية بصورة صريحة، غير أنها لم تكن متزمتة أرثوذكسية وذلك برفضها الڤيدا، في حين لم يعترف أتباعها ولم يحترموا الله بمعنى «الخالق». فكانت عقيدتهم تقوم على ثلاثة مبادئ أساسية: النظرة المستقيمة والمعرفة المستقيمة والسلوك المستقيم، وثالثها هو حصيلة المبدأين الأولين اللذين يتأسّسان على الحدس المباشر أو على دراسة تعاليم الأمر والنهي أو على إدراك المعاني السليمة. هذه الطريقة في فهم العالم تأخذ الممارسة بعين الاعتبار وكذلك اللغة وتأويلها الرُّؤْيا الفلسفية المعقدة المتبلورة بصورة دقيقة في المفاهيم، كالبنية الذرية للمادة والزمان والمكان، المركبة كلها من جوهر ثابت ساكن، في حين تخضع الروح الفردية للتناسخ حتى تبلغ الكمال المفضي إلى التحرر النهائي.

تتمايز اليانية عن البراهمانية دون أن تتعرض لها بالنقد، لكنها تقتبس منها اقتباسات لا يمكن تجاهلها، وتظل متجذرة بقوة في التربة الهندية. وعلى المؤمنين بها أن يحترموا حكماً نظاماً أخلاقياً يقوم على الالتزام بعدم الإساءة إلى أي كائن حي، وتحاشي الكذب والسرقة والفسق الجسدي والتعلق بالمنافع المادية. إذن هناك عناصر كثيرة ذات تأثير في المقاربة البوذية للعالم، لكنها تندرج في سياق استمرارية الفكر الهندي. إن الحذلقة

Twitter: @alqareah

المفرطة في القراءة اليانية للعالم منعتها من رؤية النجاح الشعبي للبوذية، إلا أن تعلقها بتراثها جعلها لا تُمنى بالهزيمة أمام زمن يمضي، وتطور على نطاق واسع أدباً فلسفياً ودنيوياً على حد سواء، وإن كان يقع قليلاً على هامش التيار الهندوسي الغالب.

يشّكل اليانيون اليوم طائفة متواضعة العدد (خمسة ملايين تقريباً)، لكنها صناعية وناجحة وذات أهمية اقتصادية في حياة الهند الحديثة. ففي نظرهم وكما يتعلمون من حكمائهم القدامى، كل حياة هي حياة مقدسة، وهي خاضعة إلى «كارما» (الفعل، أو جوازاً قانون السببية حسب العقيدة البوذية)، ومنذورة «لاجتياز مخاضة» الجهل نحو الامتلاء الروحي للنفس. المؤمنون المتزمتون منهم يضعون على أفواههم كمامة من غاز طبي ويفضلون المشي عراة الأقدام تحاشياً عن ابتلاع أية حشرة أو أذيتها سهواً. إنهم أتباع نظام تغذية نباتي صارم، يمتنعون عموماً عن استهلاك البيض وكذلك بعض أنواع الخضار البصيلية أو التي تنمو في التراب، لأنهم ينظرون إليها ككائنات «حية» باعتبارها تنمو في رحم التربة.

IV. ساعة البوذية

على أرض بيهار الحالية، في مناطق باتنا «Patna» وغايا «Gaya»، كان الماغادا (Magadha) في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد جزءاً لا يتجزأ من فورة فكرية دارت حول سؤال أساسي: ما هو السبب الذي يُلزم الكائنات الحية بعمليات التناسخ «Samsâra» المفضية إلى مرحلة النرفانا «Nirvâna» (حالة التنبُّه التي تبلغها النفس بعد تخطيها كل مكائد الوجود والتناسخ، أي حالة المعرفة الأسمى)؟ وقد جاء طرح السؤال في وقت كان فيه نظام الطوائف الاجتماعية قائماً ولا أحد يتجاسر على رفضه. لم

Twitter: @alqareah

يعد دور البراهمانيين بالأمر السهل، فقد ظهرت عقائد وحركات انشقاق هرطوقية مادية لاأدرية (تنكر قيمة العقل وقدرته على المعرفة)، كما نشأ خليط من الأفكار مكتسحاً شمال منطقة الغانج حيث كانت توجد مملكة كوشالا «Koshala» ومملكة فيديها «Vîdeha» قبل الصعود القوي للماغادا «Magadha»، وعلى هامش السيطرة الآريَّة على البنجاب، تحولت ميتيلا «Mithîla» عاصمة فيديها شيئاً فشيئاً إلى مركز تطور للأوبانيشاد «Upanishad»، أي الدراسات والبحوث النقدية الفلسفية الناجمة عن التبادل والاحتكاك بين نساك متجولين في الغالب، كانوا يقيمون حلقات النقاش في لقاءات الصدفة. غير أن مجد كوشالا «Koshala» الأساسي يكمن في كونها المكان الذي ولد فيه راما (Râma)، ابن أحد الحكام المحليين وبطل الرامايانا ***«Ramâyana»***.

إنه مصير كل مشروع بشري، حيث قامت في الهند كما في سواها ممالك وإمارات ثم اختفت تحت ركام الخضات التي يصنعها تاريخ البشر. سلالات وحكام يطلقون العنان لنصائح أرستقراطية إلى هذا الحد أو ذاك في مجتمعات تبحث عن صيغ للإصلاح، قبل أن يلمع نجم أمراء ومحاربين يبنون إماراتهم على مقاس طموحاتهم. وتتفتق عزائم شخصيات كبرى عن رغبة في التغيير. هكذا هي حالة ماهاڤيرا (Mahâvira) المولود في فايشالي «Vaishali» الذي رسخ حقاً العقيدة اليانية. وليس بعيداً نحو الشمال، في تخوم جبال هملايا، قريباً من كابيلاڤاستو «Kapilavastu» في بلاد تيراي «Teraï» المعروفة اليوم بنيبال، في حدائق لامبيني «Lumbini» الأميرية ولد سيدارتا غوتاما (Siddarta Gautama) في قلب معسكر كشاتريا «Kshatriya» للمحاربين الشاكيا «Shâkya»، وبعد أن هتك ستار الجهل الوحيد تحول إلى بوذا. وفي مفارقة لافتة، لكن ليست أبداً الوحيدة في

Twitter: @alqareah

شبه الجزيرة الهندية الزاخرة بالمفارقات والأضداد، ظلت أسماء كثيرة لامعة مجهولة إلاَّ من قِبل بعض المختصين، ما عدا استثناءات قليلة، أما اسم بوذا فقد مخر عباب العصور تاركاً بصمات لا تُمحى على وعي قسم كبير من البشرية. وبعد مُضيّ أكثر من خمسة وعشرين قرناً على مروره الأكيد بهذه الأرض، ما زالت آثار سيرته قائمة، ومقاربته حقيقة العالم ما برحت تساعد جزءاً من البشرية على أن يحيا.

Twitter: @alqareah

القسم الثاني

❖

الفصل الثالث

يقظة رجل

هكذا مضى الرجل يرعى قطيعه
أو يحرث الأرض، وحيداً مع أفكاره،
وحيداً مع الدعاء.

بوذا شاكياموني

استناداً إلى المأثور الهندي، كان الوقت في زمن كالي يوغا «Kali-Yuga» آخر الأزمنة الكونية الكبرى، الزمن الذي لم يبق فيه من دروس الاستقامة إلاّ رُبعها، وحيث الأمراض والانتفاضات والمجاعات والخيبات وغيرها من المآسي تشكِّل جزءاً من الحياة اليومية، أي باختصار الزمن البعيد عن العصر الذهبي! هذه الويلات أخذت تظهر منذ عصر المهابهاراتا التي انعكست فيها أصداء ذلك بصورة ضمنية حوالى الألف الثالث قبل المسيح. واستمر ذلك ما استمر الجهل والظلمات، حيث لم يكن للبشرية هدف وليس عندها معارف روحية تمكِّنها من الخروج من هذا المستنقع. ذلك هو على الأقل الشعور الذي عبَّرت عنه الكتب المقدسة في الهند.

Twitter: @alqareah

أول تأثيرات هذا الانحطاط كانت مرئية في حدود القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، وكان باحثون عن الحقيقة يجوبون طرقات الهند سعياً وراء جواب عن تساؤلاتهم الوجودية. وفي هذا السياق يندرج وجود بشري لا يشبه سواه تماماً، لكنه يماثله من حيث المصير. أما فرادته فهي تكمن أساساً في نوع من الحزم الداخلي النادر، الذي ينتهي إلى فتح أبواب المعرفة أو أبواب الصفاء. الطريق طويل وشائك، والمسلك لا ريب ضيّق، لكن التجربة دلت على أن ولوجه ممكن بل واجتيازه أيضاً ممكن.

النصوص القديمة تشير إلى أن عام 624 قبل الميلاد هو تاريخ ولادة سيدارتا (Siddhârta)، والسريلانكيون يحددون وفاته بعام 543، أما اليابانيون والصينيون فيحددونه بعام 549، بينما تحدد دراسات أخرى أكثر حداثة مولده بين عامي 558 و540 ورحيله عن الدنيا بعام 480؛ عام 1964 اجتمع في الهند ممثلون عن كل المدارس البوذية في العالم للاحتفال بمرور 2500 عام على ميلاد «النبيه»؛ موته وولادته مدموجان في هذا التاريخ، ما يعني العام 546 في نظر البعض و466 في نظر البعض الآخر، مفترضين أنه عاش حوالى ثمانين عاماً حسب المأثورات. مع ذلك يبدو السجال حول التواريخ أمراً ثانوياً، أما الجوهري الثابت فهو ذاك الإرث الذي ما زال يطبع بطابعه جزءاً من العالم.

إذا كانت الأسطورة قد أُثقلت بإضافات تجميلية، فإن الاكتشافات الأثرية أثبتت مروراً أكيداً في مرحلة تقريبية وعلى أرض محددة لرجل مضى إلى أبعد حدود الممكن في إنجاز مصير نموذجي. المعالم الأساسية تعيّن أرضاً محددة بين ولادته في حدائق لامبيني «Lumbini»، غير بعيد عن كابيلاڤاستو «Kapilavastu» عاصمة إمارة شاكيا، وموته (أتباعه يسمون موته بارينيرڤانا parinirvâna، أي مرحلة اليقظة التي تُختتم بها كل

Twitter: @alqareah

حالات التناسخ وهي أرقى درجات المعرفة) في كوشيناغارا «Kushînagara» التي كانت عاصمة مملكة مالا «Malla» القريبة، على تخوم غوراكبور «Gorakhpur» في منطقة أوطار برادش «Uttar Pradesh» الحالية، في ليلة اكتمل فيها بدر نيسان/أبريل، أيار/مايو، ويقول آخرون في أيلول. والدته توفيت بعد سبعة أيام على ولادة ابنها، الذي عَهِدت به إلى أختها ماهابراجاباتي (Mahâprajapati).

I. طفولة أميرية

سيدارتا ابن الأمير عاش طفولته مدللاً، في حماية قصر فخم، حيث كانت كل رغبة عنده بمثابة أمر سرعان ما ينفذ، ولا أحد يعترض. نشأ في الجمال والسعة والمباهج، وتلقى تربية المحارب المتقنة التي تليق بموقعه الاجتماعي (كشاتريا Kshatriya)، تزوج في السادسة عشرة من عمره من ابنة عمه الجميلة ياشودارا (Yashodharâ) ظافراً بها في صراع قوي على مباراة الشرف مع كل طالبيها. أنجبت له الأميرة الجميلة صبياً أسمياه راهولا (Rahûla)، فغمره بالسعادة. وكانت ذروة العظمة بانتظاره.

عند ولادة سيدارتا الذي ظهرت عليه أَمارات الكمال، جاء إلى القصر ناسك محترم اسمه آسيتا (Asita)، وفي رواية أخرى كالاديڤا (Kaladêva)، آتياً من مغارة التأمل ليهنئ الملك شودودانا (Shuddhodhana) بمولوده الجديد. وتنبأ الكاهن بأن المولود مهيًّأ ليكون في المستقبل شاكراڤارتان «Chakravartin» أي ملكاً ملهماً عادلاً صالحاً تجتمع فيه كل الفضائل، وكأنه يريد أن يقول: بوذا، «النبيه». وكان من الطبيعي أن الملك كان يفضل أن يستكمل ابنه السلالة العائلية، فأحاطه برعاية تعصمه من الاحتكاك بكل حقائق الحياة البشرية اليومية.

Twitter: @alqareah

غير أن الكارما (المصير على الطريقة الشرقية) كان معروفاً أو مكتوباً، فبعد سنوات من الاستهتار والملذات، عزم الأمير الشاب، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، أن يبتعد وراء جدران القصر برفقة الحوذي. عندئذٍ حصلت اللقاءات الأربعة التي قررت مصيره: مع عجوز شديد النحول، مع مريض يئن من الألم، مع جثة ذاهبة إلى محرقة الحطب، ومع ناسك متجول. تفاصيل هذا المنعطف الحاسم ليست محل إجماع؛ ففي حين يقول البعض إن الأمور حصلت خلال خروج واحد، يؤكد آخرون أن الأمير الشاب خرق أوامر والده بعدم العبور خارج حدود القصر أربع مرات، لكن ذلك لا يغيِّر في الأمر شيئاً. واجه سيدارتا متألماً حالات الشقاء المشتركة لدى البشر على الأرض، وفكّر في الوضع البشري ومصيره وادعى أنه عثر على سبيل للخلاص من المأساة. وهكذا قرر في ليلة ليلاء مغادرة زوجته الحبيبة وابنه والقفص الذهبي الذي شكّل ستارة تحجب عنه عالم الذين يشبهونه.

II. بداية البحث

بدأ البحث إذن، ودام ستة أعوام كاملة، مع أساتذة مشهورين: أرادا (Arâda) في ڤايشالي «Vaishalî» ثم أستاذ اليوغا رودراكا (Rudraka) في راجاغريها «Râjagriha». غير أن الممارسات النسكية لم تكن كافية لإقناع سيدارتا بأنه يسلك الطريق السليم، وبدا التخلص من الألم في نظره أمراً بعيد المنال. ولذلك فضّل، بديلاً عن ذلك، أن يبحث، وحيداً، في عزلته، عن التحقق الروحي، فمضى، وبرفقته خمسة مثله من زملائه التلامذة، يبحث عن حقيقة ما. من مغارة إلى منسك ريفي، ومن مدينة إلى قرية، بلغت المجموعة الصغيرة التي تتبع نظاماً صارماً مكاناً قريباً من غايا «Gayâ»، حيث قدم سوجاتا (Sûjata)، القروي

Twitter: @alqareah

الشاب إلى الجوَّالين الستة صحناً من الأرز. بدا لسيدارتا أن الصوم وتعذيب الجسد ليسا الترياق الذي يشفي آلام الوجود. لذلك وافق على تناول الطعام، أما رفاقه الذين صدمهم تصرفه فقد ابتعدوا عنه متجهين نحو ڤاراناسي «Varânasi» سعياً وراء متابعة نسكهم. بعد أن استحم سيدارتا التقى فلاحاً يحصد حقلاً من عشب الكوشا Kousha الذي يُستخدم في طقوس الديانة الڤيدية الهندية، فقدم له باقة منها. جلس طالب اليقظة (النباهة) على جذع شجرة من تين المعابد ثم دار حولها سبع مرات، ثم نام على وسادة العشب التي قدمها له الفلاح، عازماً على ألاّ يبرح حتى يبلغ هدفه، أي العثور على الدواء المحتوم للألم والشفاء، أي باختصار، لتعاسة الوجود. وظل ثابتاً على قراره مسمَّراً في مكانه، ودخل في حالة التأمل في انتظار ليلة يكون البدر فيها في تمامه.

هنا أيضاً تدخل لعبة الزمن. فهل المقصود الليلة التي تلي اتخاذه القرار أم الليلة التي تنتهي فيها دورة سباعية كل واحدة منها لسبعة أيام من الاستبطان المتواصل؟ تتضارب الروايات، لكنها تتفق على ليلة مقمرة ببدرها المستدير، بعد معركة لا هوادة فيها مع مارا (Mâra) وجحافله. مارا، الإله أو الشيطان، هو الذي يدير عالم الملذات، الذي يُوقِع في حبائل التجدد التي لا نهاية لها ولا بداية، البشرَ، ويأسرهم بمكائده، وهو المهدِّم المدمِّر الذي يرمِّز العواطف وكل عوامل الربط والوصل. حين رأى سيدارتا على عتبة يقظته (تنبهه) أي على حافة الوعي النهائي الشامل، انتابته الخشية من أن يوفر سيدارتا للبشرية الشقية وسائل نجاتها من هذه الدائرة المجنونة، فعاجله بدايةً بأسلحته الشيطانية ثم برهط من الحسان الجميلات. لكن كل ذلك لم يؤثِّر في المتأمل الصامد بكامل مهابته وقسوته، الذي أشهد الأرض بحركة خاطفة

Twitter: @alqareah

منه (لامس الأرض بيده اليمنى قرب الركبة) على إنجازاته السابقة وبلغ بصفاء الليلة الحاسمة، وفرَّ مارا مهزوماً.

III. اليقظة (التنبُّه)

ها هو الليل، على أولى درجات التأمل تخلصت الروح من كل انفعال ومن أي تأمل فكري، ومحا سيدارتا، بنظرة داخلية، الزمان اللامتناهي والمكان اللامحدود وكل الخصومات والصراعات ودورات الحياة والموت. على الدرجة الثانية انفتحت «العين الإلٰهية» التي ترى أكواناً لا عد لها وأشكالاً لا حصر لها من الوجود في الماضي والمستقبل مع مواكب الشقاء والبؤس والآلام المتكررة. كيف السبيل إلى الخروج منها؟ باندفاعة من الرفق مدعومة بقوة الحدس الخلّاق صارت درجة التأمل الثالثة بالنسبة له هي درجة اليقظة (التنبه): الرغبة تدير العالم بالتأكيد، غير أن الرغبة الأنانية تجرُّ من ولادة إلى ولادة ومن حياة إلى أخرى ومن موت إلى موت ثانٍ. إذاك تبدو السيطرة على اللذة بمثابة القبض على مفتاح التحرر منها.

عند الفوز بالحرية يعرف «النبيه» أن هذه المعرفة يستحيل توصيلها: أية كلمات تكفي لوصفها، واللغة لا تتسع للفكرة والتجربة لا تقبل التداول؟ «الحياة ليست مشكلة تحتاج إلى حل بل هي تجربة تُعاش»، هذا ما أعلنه في أحد الأيام جواباً على تلك الأسئلة الشهيرة التي لا جواب لها، والتي تشكّل جزءاً لا يتجزأ من «صمت بوذا»... انبلج فجر جديد في بود غايا «Bodh Gayâ»، وعلى جذر شجرة بودي تحوَّل التلميذ الحكيم إلى «محرَّر حي»، حسب المأثور الهندي. واكتمل البحث وصار ينبغي أن يُفتح باب فصل جديد.

Twitter: @alqareah

من المحتمل جداً أن هذه الليلة، من بين كل الليالي، هي التي أعقبت الالتزام بالمُضيّ إلى نهاية البحث مهما كان الثمن، وإلا فكيف يفسر الصمت الطويل الذي تلا ذلك، طيلة الأسابيع السبعة من التفكير الصامت في بود غايا قبل أن يقرر ما سيفعله بعد ذلك؟ فبعد أن أدرك بنظرة واحدة كلية العوالم في زمن محنته تجربة اليقظة (التنبه)، لم يعد الرجوع إلى زمن البشر بالأمر السهل. هذا الاكتشاف المطلوب بحدة هو أمر شخصي في البداية، لكنه في الوقت ذاته يخص الجميع لأنه يقطع بصورة حاسمة دورة الولادة المتجددة التي لا نهاية لها، مقوّضاً بذلك أسس النظام القائم. والدليل على ذلك يوفره المثل القائل بأن كسر حلقات الوجود لا يتعلق بالآلهة ولا بالبراهمان، فالحرية تُنال بالانتصار على النفس...

هذه المعرفة، هذا اليقين في القبض على الآلية الأساسية التي تجعل العالم يتحرك، والتي تربط الأسباب بالنتائج، تملي مسؤولية ما، هي مسؤلية المشاركة، لأن الذين يحاولون البحث بين طيات الجهل عن الحقيقة هم كثر، والنسك وحده لا يكفي والتضحية والطقوس لا تفضي إلى بلوغ الهدف المنشود. يبقى إذن أن يجد المرء داخل النفس الينابيع الضرورية لإزالة السواتر التي تسد الرؤيا. إن أسابيع التفكير في بود غايا ليست كافية للحكم له أو عليه إزاء المسائل التي طرحها بوذا على نفسه بعناية شديدة خلال عزلته طيلة مرحلة التساؤلات الصامتة، ومنها هل يقول أو لا يقول، هل يمضي في عملية الشرح والتفسير مع مغبة زرع الهلع في النفوس أم مغبة عدم وصول أفكاره، هل يفكر في نفسه أم يهتم بالآخرين أولاً.

حتى الآلهة في سماواتها العلوية قلقت من هذا الصمت، وتقول الأسطورة إن براهما ـ الإله تدخَّل شخصياً موجهاً عظته

Twitter: @alqareah

إلى بوذا بهذه الكلمات: «افتح لنا، أيها الحكيم، باب الأبدية، أسمعنا ما توصلت إلى اكتشافه. وجّه نظرك إلى تحت إلى البشرية المعذبة بالولادة والكهولة. ارفع صوتك، أيها المعلم، كثيرون سيفهمون كلامك». امتثل الحكيم لهذا الدعاء الذي كرره الإلٰه على مسامعه ثلاث مرات، ورأفة منه تجاه من يشبهونه بدأ مسيرة طويلة في عمر الخامسة والثلاثين لم تكتمل، في تلك المرحلة، إلا بعد خمسة وأربعين عاماً. غير أن العقيدة، أو الدارما «Dharma ـ الشريعة»، هذا القبس الخافت الذي أُنير في غابر التاريخ، توهَّج وتألق عبر العصور.

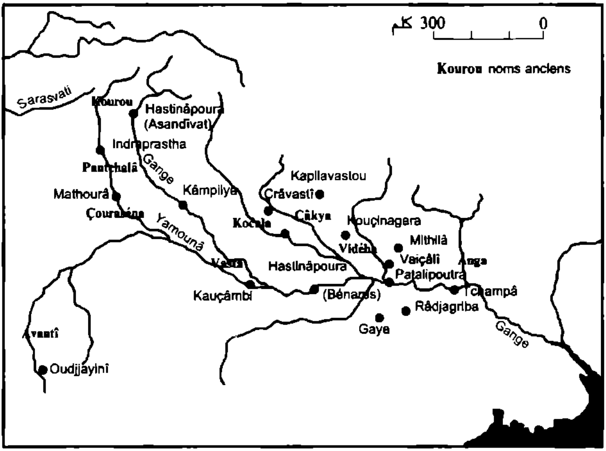

مسيرة بوذا

Twitter: @alqareah

إذاك غدا من الصعب التمييز بين الأصلي من الوقائع والمضاف المتخيل المبتكر منها، أي المعجزة: هذا هو نصيب الذين، بالضبط، يخرجون من لعبة التمييز، ولكن من غير أن يغفلوا، بكل وعي، أن الزهد يشحذ الحواس وأن ممارسة اليوغا تنمّي أحياناً بعض المزايا التي يراها البشر الفانون كأنها سحرية. لقد كان المأثور الهندي يضفي أحياناً على الحكماء والمستبصرين والنساك «سلطات»، نادراً ما كانوا، وبكل دراية، يستخدمونها. ولم يكن بوذا استثناءً لهذه القاعدة. وكان طبيعياً جداً أن يستأنف مسيرته، بعد مرحلة التنبه ونضج التفكير، لكي يقدّم للقادرين على فهمه ثمرة تجربته. وقد بدا التحول يظهر عليه، حتى من الناحية الجسدية: كان ينبثق منه شيء كالإشعاع، فتُرى تحولاته عن قرب، وتجري الإشاعة باكراً على دروب الكهنة والنساك والحُجّاج.

IV. حياة حكيم ملتزم

بوذا لم يكن يُبالي، ولأنه قرّر فقد مضى في مسيرته. فبعد صوم طويل، سد رمقه بوجبة خفيفة من الأرز والعسل، قدمها له اثنان من أغنياء التجار التقيا به، وحرك مشاعرهما صفاء يشع من هذا الكاهن المتفرد على جذع شجرة «البوذي»، ثم اتجه في البداية نحو مدينة فاراناسي «Vârânasî» المقدسة. بالقرب من المدينة، في سارناث «Sârnâth»، في «غابة الغزلان»، اجتمع شمله برفاقه الخمسة الذين غادروه بعد هجره حالة النسك والزهد. وبعد أن أبدوا ارتياباً، لاحظوا بسرعة أن شيئاً قد تغيّر لدى صديقهم القديم: كان تعبيره الهادئ ينمّ عن انتصار ما، ولكن أي انتصار هذا؟

من موقع الحيرة والقلق، طرح الكهنة الخمسة أسئلتهم باحترام عليه وأصغوا: هذا ما تسميه المأثورات بـ «خطاب

Twitter: @alqareah

بيناريس الوعظي «le discours (ou sermon) de Bénarès» أو «تحريك دولاب الشريعة «la mise en branle de la Roue de la Loi». لأول مرة يشرح «النبيه»، في الواقع، «الحقائق السامية الأربع «Les quatre Nobles Verités»، ويرسم «الممر المثمَّن l'Octuple «Sentier المؤدي إلى تحرير حلقات التجدد، أي سمسارا «Samsarâ». وقد أفحم مستمعيه بقوة منطقه ومحاجاجاته، فصاروا لتوِّهم أول تلامذة بوذا في الدين والركيزة التي سيقوم عليها الصرح الجديد للرهبنة البوذية سانغا «Sangha».

استمر الأمر على هذه الحال حتى نهاية حياة «النبيه» على الأرض، فشق السبل إلى ماغادا «Magadha» وضم إلى صفوف ديانته من كانوا يستمعون إليه، شحاذين وملوكاً، فلاحين وحرفيين، النساك وتلامذتهم، متدينين وعلمانيين، رجالاً ونساءً. كان يؤثِّر على سامعيه بلغته الواضحة التي كان يطوِّعها حسب المقام، واضعاً كلاً منهم على طريق التفكير السليم تبعاً لمستواه: روايات كثيرة تشهد على مهارته في إيصال رسالته، فضلاً عن لجوئه أحياناً إلى المعجزات. ما الذي لا يعطاه الرجال القديسون الذين حاكوا نسيج التاريخ الروحي الهندي؟ لقد قدَّم له الأثرياء من الحكام والتجار السكن والأراضي، وقدَّم له الفقراء زهوراً وإخلاصاً؛ وكان الجميع يجدون بالقرب منه أو على طريقه سبباً للأمل، فيصبح من الممكن إذاك، ولو لم يكن سهلاً، التخلص من عذاب الدنيا ومن رهبة الموت.

تمرّ السنون بينما يستمر بوذا يبذر في الهواء بذور فهم جديد، بل ثوري، لحقائق العالم، فأعاد طرح التساؤل حول الإيمان بالقدرة الكلية للآلهة، وحول مفهوم «الأنا» الذي لا يتغير، وحول الخلود، وحدد مفهوم الكارما (قانون السببية حسب العقيدة البوذية)، ووقف في مواجهة نظام الطبقات المغلقة ومجَّد

Twitter: @alqareah

المسؤولية الفردية لتأمين حياة كريمة متناغمة ومتناسقة مع كل الكائنات الحية. ومع مرور الوقت، وتزايد عدد الأتباع وتضخيم الأخويات الدينية أخذ الرهبان يغادرون حياة الترحل ويختارون الإقامة الحضرية، وإذا لم يكونوا يملكون أبداً على الصعيد الشخصي فقد بدأوا، كجماعة، يشعرون بأن حياتهم المادية مؤمنة بصورة مريحة.

حول بوذا كانت تنهض ممالك وتدوَّل دول ويتقاتل المتخاصمون، وبعضهم كانوا يغيّرون ما بأنفسهم فيعملون على الترويج للأفكار الجديدة، وملكت قلوبَ الجماهير أفعالُ «النبيه» العظيمة وهباته الكبيرة، فتجذرت العقيدة، ووافق على تشكيل رهبنة نسائية، لكن وطأة الزمن أبقته أميناً على نظام الرهبنة الصارم. ولم يوفره المرض، وحين بدأ يشعر بأن قواه إلى تراجع وبأن ساعته دنت، في عمر الثمانين، من ضفة الحياة الأخرى، عاود الإمساك بعصا الترحال. أراد أن يغادر الصومعة في «غابات الخيزران «Bois de bambous» بالقرب من راجاغريها «Râdjagriha» حيث كان يقضي عزلة فصل الشتاء، ويتجه إلى كابيلاڤاستو «Kapilavastû» مكان ولادته. وتقول الرواية إن بوذا تمنى، وهو في طريقه إلى الشمال، أن يرى هملايا من جديد مرةً أخيرة قبل أن يغادرها نهائياً. لكنه لم ينل ما تمناه، فأصيب وهو في الطريق بأزمة، يحتمل أن يكون عارض ديزنتاريا، أنهكته وأبقته في فايزهالي «Vaishâli» في استراحته القسرية القصيرة هذه قال كلامه الشهير لأقرب تلامذته أناندا: «ها قد أصبحت كهلاً واهناً، وصرت على آخر طريقي، وحياتي تشارف على النهاية، ولا يرتاح جسمي إلا وأنا في حالة التأمل، فعليك إذن يا أناندا، عليك وحدك أن تحمل مشعلك...».

جمع «النبيه» الرهبان المرافقين وقال: «في الحقيقة أيها

Twitter: @alqareah

الرهبان، أقول لكم كل الأشياء على هذه الأرض بائدة، ونهايتي قريبة (...) سأمضي وأنتم ستبقون (...) من يعش وفياً لكلام الحقيقة ولا يتزعزع يتخلصْ من وطأة الحياة والموت ويبلغ نهاية العذاب». لكنه، حين أخذ يشعر بالتحسن، استأنف مع تلامذته، وأمضى وقتاً في حديقة حدّاد عرض عليه أن يتقاسم وإياه وجبة الطعام. وإذا كان الطعام لم يعد يلائمه فإن المبدأ يمنعه من أن يرفض عطية. رغم النكسة والآلام الجسدية بلغت المجموعة كوشيناغارا «Kushinâgara»، المحطة الأخيرة من حياة بوذا الأرضية. تمدد على طبقة من العشب بين شجرتين تصبان عليه من ندى أزهارهما. مع الفجر الثاني وفي ليلة اكتمل بدرها (من أيار أو أيلول)، من عام 450 تقريباً قبل الميلاد، دخل حكيم شاكيا «Shakya» الصامت حالة النرفانا (اليقظة، بعد تجاوز كل مكائد الوجود وحالات التناسخ، أو المعرفة الربانية)، ودخل هذه الحالة المؤجلة بتروٍّ من أجل مساعدة الآخرين. إذاك بدأ تاريخ آخر، هو تاريخ البوذية.

Twitter: @alqareah

الفصل الرابع

الممر المثمَّن وتفرعاته

صمت بوذا ليس معرفة بل هو ما يوجد
بعد المعرفة، إنه الحكمة.

أوكتافيو باز

احتفظ بوذا بتعاليمه الأولى بعد اليقظة (التنبه) لرفاقه الرهبان الذين حزنوا لتخليه المؤقت عن أعمال التقوى، وبعد أن اجتمع شملهم معه في غابة الغزلان في سرناث Sarnâth، حيث حصرهم علمه الكلي، وبعد أن أنجزوا آداب المجاملات راح يجيب على تساؤلاتهم وصار يتوجه إليهم لا كزميل بل كمعلم:

«إليكم أيها الرهبان معنى العذاب: الولادة عذاب والموت عذاب والمرض عذاب والاتحاد مع ما لا نحب عذاب والانفصال عما نحب عذاب وعدم إشباع الرغبة عذاب. والحقيقة أن أنواع التعلق الخمسة بالحياة (الجسد، الأحاسيس، التمثلات والأفكار والمعرفة، التي تشكّل الأنا) هي أيضاً عذاب».

«إليكم أيها الرهبان حقيقة مصدر العذاب: إنها الرغبة في الوجود المفضية من تجدد إلى تجدد، الرغبة في اللذة، الرغبة في الرغبة، الرغبة في العابر الفاني (إذ لا شيءَ خالد في الحياة الدنيا)».

Twitter: @alqareah

«إليكم، أيها الرهبان، حقيقة إزالة هذا العذاب: إطفاء هذا العطش بإلغاء اللذة إلغاءً كاملاً عن طريق طردها ورفضها والتخلص منها وعدم ترك أي مكان لها تحل فيه».

«إليكم، أيها الرهبان، حقيقة السبيل الآيل إلى توقف العذاب: إنه الممر المثمَّن وفروعه هي الإيمان الصحيح والإرادة الصحيحة واللغة الصحيحة والعمل الصحيح ووسائل العيش الصحيحة والتطبيق الصحيح والذاكرة الصحيحة والتأمل الصحيح».

ذلك هو جوهر قراءة العالم كما اقترحها بوذا على رفاقه القدامى، والنتيجة مُفحمة: فقد غدوا واحداً واحداً أول أتباعه، فشكّلوا المجموعة الأولى التي حملت اسم سانغا أو الجماعة الرهبانية. وهكذا تكوّنت النواة الأولى لهذه المغامرة العادية من «الجوهرات الثلاث Trois Joyaux»: بوذا نفسه، الدارما Dharma أو التعاليم، وسانغا أو التنظيم الرهبني. كل بوذيي العالم، أياً كان ولاؤهم ينتمون إلى هذه العناصر الثلاثة التأسيسية.

ما يثير الانتباه لأول وهلة في هذا الكلام هو وضوح المقصد وإيجاز التعبير. فليس ما يُدهش إذن أن يُعتبر بمثابة «الطبيب الكبير»: فبعد مرحلة من التفكير الناضج (ست سنوات من النسك وأسابيع من التأمل على جذع شجرة بوذي Bodhi) توصل إلى خلاصة بحثه، ووضع التشخيص واقترح الدواء. عندها يصبح على «المريض»، أي على أولئك الذين يبحثون، ومن بعدهم، على كل من يفكر في الشرط البشري، أن يحدد لنفسه طريقاً، وعلى كل واحد أن يحدد خياره، ويمضي... حتى لو استلزم الوصول إلى نهاية البحث أن يعيش المرء أكثر من مرة.

هذا الأمر ليس مثار شك، ذلك أن بوذا يتحدر أولاً وقبل كل شيء من منطق الحضارة الهندية أي من فكرة التناسخ والتقمص،

Twitter: @alqareah

ومن مرحلة في أيامه شهدت عصر غليان فكري وروحي كان التساؤل فيه عن القيم القائمة على أَشُدِّه. فيما بعد، أي بعد غياب بوذا جسدياً عن مسرح الحياة، بدأ قوامه يتخذ أبعاداً أخرى. ففي حياته كان، بالتأكيد، معلماً مشهوراً ومسموعاً، وبعد موته فحسب قامت أسطورته حقاً وتطورت عقيدته ليغدو الفكر الغزير الذي عبر العصور حتى أيامنا.

من هذه «الحقائق الأربع السامية» المعروضة لأول مرة بصيغتها الأكثر إيجازاً وشيوعاً تتحدر كمية من التأويلات والبحوث والتحليلات التي أغنت قراءةً للعالم ملائمة للظروف الخاصة في الأرض التي روتها. على كل حال، لا خلاف على القول المأثور القديم في بلاد التيبت القائل بأن «لكل شيخ عقيدته» المستندة إلى سلطة «المعلم»، وهو أمر، لا شك، صحيح. على هذا الأساس الراسخ عميقاً في الرؤية الدقيقة إلى حقيقة الوجود البشري العملية، راحت تُشاد، على مر الزمن والشخصيات التي نذرت نفسها للمهمة، عملية فك طلاسم العالم بوجوهه المتعددة، لأنه إذا كانت الكائنات بحاجة إلى الأشياء الأساسية ذاتها فليس لها المصلحة ذاتها في تفسير سبب خوضها هذه التجربة المشتركة، وفي معرفة جدوى خوضها.

من اللحظة التي يقرر فيها بوذا إخبار من يسأله عن مكتشفاته، يُعْلِمه بوضوح أن الإصغاء وحده لا يكفي ليفهم السائل ما يقوله له. والذين سبق لهم أن طرحوا أسئلة وحققوا مهارة ما فكرية وجسدية، يملكون الفرص الأكبر ليفهموا معنى إرشاداته. لكن تطبيقها رهن بمثابرة فردية. أما الآخرون، وهم الأغلبية الساحقة، فمن الأنسب إيجاد التفسير الممكن إيصاله، وتقديم الوعظ تطبيقياً بقوة المثال، مع توفير مفاتيح التفكير الفردي، وهو ما لم ينقطع عن فعله حتى آخر أيامه.

Twitter: @alqareah

من موقع الاهتمام الدائم بالآخر، وأياً تكن المناسبة، عادية أو احتفالية، كان لا يلقي دروسه بالطريقة ذاتها، بل بما يناسب المستمع أو الشخص الذي يتوجه إليه. غير أن أفكاره لا تتحول على الفور إلى مبادئ أساسية مصاغة بوضوح: أن يعرف المرء حقاً أن كل شيء زائل وأن الأنا وهم وأن الألم هو رفيق وفيٌّ، ذلك يشكّل العلم بخصائص الوجود الثلاث (المخلوقات لا تدوم، الكائن لاجوهري، الكائن متكيف). هذا هو أيضاً أول الطريق البوذي المفضي إلى صيرورة لا تنقطع، من ولادة إلى ولادة جديدة، أي إلى سمسارا: لا يجدي سلوك النعامة إزاء الحقائق التي ليست سوى المصير المشترك لكل الكائنات بمن في ذلك حكيم شاكيا Shâkya.

I. الرحمة الفعَّالة

مستقوياً بتجربة قابلة لأن توضع في خدمة الآخرين، أو أن تكون مثالاً لهم، «فالنبيه» لم يكن يألو جهداً، من موقع المربي الصالح، في توظيف كل مناسبة للتحفيز على التفكير. كانت المهمة تتم بسهولة كبيرة، وهو أمر لا يجوز إغفاله، لأن التعليم كان يتم شفوياً ما يتيح التواصل والمتابعة. كالطبيب الماهر الحريص على تخفيف الألم في انتظار شفاء المريض، كان يعالج الأكثر إلحاحاً، والدواء الذي يصفه ليس، في البداية، أكثر من نظام انضباطي أو للدقة نظام أخلاقي. كان صاحب نخوة في نجدة الآخرين لكن رحمته كانت فعالة ومجردة من أي تكلف. وكان، وهو شديد الانتباه إلى ما يقول، ينمّ عن بساطة ظاهرة في الأسلوب، تعكس تأملاً مستمراً في حركات الجسد ونبرة الكلام وانفعالات النفس، من غير أن يغفل شاردة أو تفصيلاً. وكانت المهمة تزداد صعوبة كلما كان المتلقي من النوع الذي يقع بسهولة في التشوش.

Twitter: @alqareah

كانت الغاية من الممر المثمَّن هي بالضبط وقف هذا التشوش، بدءاً من وضع حد للجهل، والجهل موجود منذ الأزل، شيء من الجهل إذا اعتقدنا بأفكار بوذا، على كل مستويات الوجود، جهل لا أول له ولا آخر: «الحد القديم للجهل لا يمكن اكتشافه؛ وعلى غرار تعاقب النبتة والبذرة، البيضة والدجاجة، فإنَّ دورة وجود الكائنات (الوجودات) تمتد إلى آخر المدى». إن الرغبة، وهي علة الوجود ومبرره، تأخذ طريقها إلى الظهور عن طريق الجهل، وهي، في الآن ذاته، نقطة الانطلاق ونقطة الوصول للأصول المتداخلة المتعالقة، وبعبارةٍ أخرى هي سلسلة المعلولات والعلل.

في شريعة «النبيه» يُعتبر الجهل، بالدرجة الأولى، جهلاً بالحقائق السامية الأربع، أي بالتالي العلة والمعلول! ومفاهيم أساسية عن اللاديمومة (المخلوقات لا تدوم) واللاأنا والترابط (العلاقات المتبادلة). بكلمة واحدة أو بكلمات، فإن الذي «يصنع» العالم وتجسداته ليس الكليات الثابتة والجامدة، ولا هو خالق أسمى من طبيعة إلٰهية، بل هو موج متصل من الروابط التي تنعقد وتنحل، هو التحول والانمساخ الدائمان: الصيرورة. وما الجهل بهذه الحقيقة إلا الدخول من الباب الواسع في العذاب والألم.

الخروج من هذه الحلقة المفرغة وقوله قف لهذا العالم هما الانعتاق الذي لا يجد قاعدة انطلاقه إلا في الممر المثمَّن، «الممر النبيل Noble Sentier»، وتفرعاته. المعرفة والإرادة الصحيحتان هما جزء من الأنطولوجيا (علم الكائن)، ذلك أن المعرفة (اكتساب المعرفة) مآلها القضاء على الجهل، وهناك وسائل ملموسة تتيح الوصول إلى هذه الغاية: تركيز الانتباه، ممارسة التأمل بمزيد من التعمق، والثبات على بذل الجهد. يضاف إلى ذلك، لاستكمال اللوحة، موقف أخلاقي كامل لا يقل أهمية: لغة سليمة وفعل

Twitter: @alqareah

صـحيـح، ووسـائل عيش شـريفة. كل ذلك رهن الانتباه إلى أن إخضاع الجسد لنظام دقيق يشكّل أساس التدرب البوذي: الحقيقة لا تأتي من الخارج، واليقظة (النباهة) ليست ممكنة، تبعاً لهذا التصور، إلا في إطار جسد بشري حساس، وهو شرط لا غنى عنه لولوج البحث.

II. الملاذ (المعتَصَم)

إذا كان بوذا قد بدأ يبشر بتجربته أمام أشخاص متدينين، فلأنه كان يعرف أن الأفراد ليسوا سواسية في استيعابها، ذلك أن رفض هذا العالم هو خيار وله ثمنه، وأن البحث عن الحقيقة التي لا مقر لها ولا مستقر ليس بالضرورة أمراً سهلاً. مع ذلك أمكن لبوذا، من غير شرح مستفيض، أن يقنع اثنين من الأتباع العلمانيين، بفضل هيبته ووقاره فحسب، وهما التاجران اللذان قدّما له وجبة الطعام تحت شجرة البوذي Bodhi، واللذان أدركا بالحدس أنهما أمام معلم أصيل، فوضعا نفسيهما تحت رعايته وحمايته بكل عفوية. وبذلك كانا أول من وجد في «النبيه» «ملاذاً»، وذاك هو أول عنصر في الصيغة الشهيرة، صيغة انضمام «الجوهرات الثلاث» التي ما زال يرددها اليوم الأعضاء الجدد الراغبون في اعتماد هذا النهج في الحياة.

«إني اعتصم ببوذا، بشريعته «Dharma» وجماعته «Sangha». هذه العبارة هي بمثابة القَسَم الحازم الذي يُطلقه الأتباع في كل المدارس البوذية متعهدين الالتزام بخمسة مبادئ: لا تقتل، لا تسرق، لا تزنِ، لا تكذب، لا تعاقر المشروبات المخدرة. هذه التعاليم هي القاعدة الأساس المعترف بها من رجال الدين ومن العلمانيين على حد سواء، يضاف إليها لدى الرهبان تدابير وأحكام تتزايد مع نمو الجماعة النسكية واتساعها.

Twitter: @alqareah

بدايات هذا الفصل الجديد من حياة بوذا لم تختلف كثيراً عن سنوات النسك التي سبقتها: لقد حصل في عزلته على ما كان يبحث عنه بكثير من الشوق، لكنّه استعاد الوجود التائه من أولئك الذين، حسب التعبير المخصص عنهم، «غادروا البيت» ناذرين أنفسهم للبحث الروحي. لقد مضى مع المقربين من تلامذته في كل الطرقات والمسالك، يستجدي قوته اليومي، يلجأ إلى الغابات أو المغاور بحثاً عن اللقاء مع الآخرين. غير أن شهرته سبقته باكراً، فكانوا، كما تقول المأثورات، يتزاحمون في كل الأوساط لاستقباله والإصغاء إليه أو الانخراط في جماعته. كان يوافق، لكن بتحفظ شديد.

هذه الجماعة من الرهبان المسعفين تدين له بالذات في حملها دواءً للعذاب البشري. في فصل الشتاء كانوا يقضون أوقات الرياضة الروحية على أراضٍ وفي أمكنة يقدمها لهم الحكام والأمراء والتجار والحرفيون، ويؤمّنون لهم قوتهم الغذائي، فتتكدس الهبات ويبادلها الرهبان بالدراسة، ويكرّسون أوقاتهم للبحث الروحي، وبوذا يقوم بالتدريس دون ما كلل. وهكذا تنمو الجماعة (Sangha)، وباسم الجماعة يحترم المتدينون التزامهم بحياة الزهد، على الأقل طالما بقي «النبيه» بينهم: إنه هو الذي يرعى البذرة. وتقول الأسطورة إنه لم يكن يتغافل عن أية نزوة كائناً من كان صاحبها. ففي نظره، المثال الشخصي يساوي كل العظات، والإرشادات لا تكون صالحة إلا إذا وضعت موضع الممارسة والتجربة، كما لو كان مقتنعاً بأن أية تجربة، لا سيما تجربة «النبيه»، لا يمكن أن تُقَلّد إلا إذا كانت مُعاشة بعمق.

أما الفتوى باللاوجود الأساسي «للأنا»، فقد كان «النبيه» شخصية استثنائية تعرف كيف تقنع بها أياً كان من الفضوليين أو الأتباع أو الخصوم أو الرافضين: كان مجرد حضوره كافياً

Twitter: @alqareah

للإقناع. وليست المفارقة إلا ظاهرية، ولنتذكّر أنه لم يزعم يوماً أنه شيء آخر غير كائن بشري نمَّى إرادة حديدية لكي يبلغ الهدف الذي حدده لنفسه. أما الأسطورة التي حيكت حوله فقد اختلقت وزيفت لاحقاً بالتأويلات المُضافة إليها عبر أجيال قامت بنقلها والتبشير بها وتدريسها بغير أمانة.

III. حكاية الكارما Karma

ما حرص بوذا على تعليمه، بالأولوية، لأمثاله هو أنه لا توجد «أنا»، روحاً أو نفساً أو وعياً، أي على اختلاف التسمية، «أنا» دائمة وثابتة، وراء الطابع الفردي لكل شخص يفكر ويعمل: لا يعدو الأمر غير تجميع خاص وعابر للمكوّنات المتنوعة التي تتشكّل منها شخصية الفرد المندرجة في دفق المستقبل، والمهيأة، من موقعها هذا، للاختفاء والزوال، لأنها مولودة لفترة ما من الزمن غير محددة. إن المنظور البوذي يختلف، من هذه الزاوية، اختلافاً جذرياً عن البراهمانية المرتكزة على وجود آتمان Âtman، أي مبدأ الطاقة الحيوية التي تنتقل من غلاف جسدي إلى آخر بمشيئة دورة التناسخ وحالات التقمص.

إنَّ شبكة القراءة هذه هي ثورية أيضاً من حيث تعرضها لجذر الأنانية بالذات، أي مفتاح الرغبة الذي يوجه حفل الكون الراقص: إذا لم تكن «الأنا» موجودة، فما هي الجدوى من الحاجز الذي يفصل بين المتقشفين والذي يشكّل مصدر الصراعات، في حين أن وراء الأُخوَّة (fraternité «من أخ» أو Soronité «من أخت»)! بين أفراد الجنس البشري تفاعلاً يشارك فيه كل شيء حي؟ من هنا تظهر أهمية علاقات الترابط التي لا تجمع العلة إلى المعلول فحسب بالنسبة للعنصر الفاعل، بل كذلك إلى التأثير غير المباشر على المجموعة بكاملها. وهكذا فإن توسيع حقل الوجود

Twitter: @alqareah

البشري يكتسب أفقاً أرحب يمس البُعد الكوني.

إن قانون السببية أو «قانون الأفعال» المعروف تحت اسم كارما، يُفهم بصورة عامة كمبدأ في الثواب الأخلاقي: إذا كان لكل سبب نتيجة، فإن حياة الفرد ليست إلا حصاد ما كان قد زرعه خلال حالات الوجود السابقة حتى لو امّحت ذكراها. إنها بلا شك مسألة تأويل تجعل من «تراكم المزايا» أمراً عادياً في الطقوس الشعبية داخل البلدان التي لا تزال البوذية تشكّل فيها جزءاً من السلوك اليومي. قليلون جداً بل نادرون الذين يرون في قانون السببية الشمولي هذا تأثير النية التي يتحقق العمل في ظلها أكثر من رؤيتهم تأثير العمل نفسه: يبقى العمل من غير تأثير سببي (كارميكي، من Karma) شرط أن يتحقق أو لا يتحقق، بعيداً عن أية نية في الطمع أو الحقد أو التملك أو جودة العمل. إنها ليست الحتمية أبداً، بل مجرد فعل يفترض أن ينتج حالة معيّنة، تاركاً المجال لقدرية معيّنة تفعل فعلها انطلاقاً من هذه الحالة. مهما يكن من الأمر، فإن «النبيه» لا يسترسل في الموضوع، ربما لأنه يقدّر أن إيجاد الدواء للعذاب العادي هو أكثر إلحاحاً من الشرود في تحليلات ماورائية، عديمة الفائدة أحياناً، ترمي إلى معرفة ما لا يمكن معرفته.

من أجل كسر سلسلة الترابط هذه، يقترح «الممر المثمّن» مراحل ثلاثاً: المعرفة التي تضع حداً للجهل، العمل المثابر للقضاء على العذاب والشقاء، وأخيراً نمط عيش أخلاقي يبلغ مرحلة النرڤانا، أي الخروج نهائياً من التهيُّؤ للولادة من جديد.

تتلخص النظرة الصائبة في فهم أكثر ما يكون وضوحاً للوجوه الثلاثة الأساسية للحياة الظاهراتية كما تلتقطها الحواس: العذاب (Dukkha) اللاديمومة (Anicca) وغياب الأنا: اللاأنا

Twitter: @alqareah

(Anatta). بعد استيعاب هذه المفاهيم الأساسية الثلاثة والتثبت من شمولية العذاب، يحرص بمعنى ما، على أن يعرض خريطته الشخصية عما جرى التوافق عموماً على تسميته بـِ «الأنا»، حيث تتكوّن العناصر الخمسة (Skandhas) من الجسد والحواس والإدراكات والتمثلات الذهنية والوعي، وهي مترابطة لا يمكن أن توجد إلا مترابطة فيما بينها، بحيث لا يمكن تصور العناصر الأربعة الأولى في غياب العنصر الخامس.

لهذا فإن هذه العناصر المكوّنة هي بدورها عابرة ومندرجة في الدفق المشترك لتحول الصيرورة المستمر. من هذه الزاوية في رؤية الأشياء، تنطبق حتمية اللاديمومة أيضاً على الأنا Ego، التي لا يمكن لها أن تشكّل استثناءً في عالم لا شيءَ ثابت وأبدي فيه إلا التغير والتحول. لا شك أن الاستمرارية الفكرية والذاكرة تعززان الوهم في إمكانية الوجود الدائم «للأنا»، ولكن من غير الخضوع لامتحان دقيق: إنهما يبدوان غير قابلين للنقل والتكرار بل هما ممهوران بخاتم الهشاشة الشمولية.

من وجهتَي النظر الذهنية أو الجسدية، إن أي عنصر من هذه العناصر الخمسة، منظوراً إليه ككيان صلب وثابت نسبياً، لا يوجد بذاته ولذاته. إن اقتباس «الممر المثمَّن» يتطلب بداية إنجاز هذا العمل بجهد ذاتي، لكي تفتح الطريق أمام بحث أكثر عمقاً في مجالات أخرى.

IV. مسؤول عن حياته

إذا أهملنا المراحل التأسيسية والتأملات التقريبية، واكتفينا بأقدم النصوص التي تمّ جمعها في الآونة الأخيرة بعد موت بوذا، فإن «النبيه» يبدو بصورة جوهرية براغماتياً، ويبني تعليمه على

Twitter: @alqareah

التجربة الأكثر شيوعاً (المشتركة)، تجربة الحياة البشرية. إلا أنه يمتاز عن سواه في كونه يدفع تعليله العقلي ومنطقه إلى الحد الأقصى فيُعرف إذاك أن الكائن البشري هو الحِرَفي المسؤول عن حياته. لا تشاؤم في هذا الاستنتاج ولا عدمية، بل مجرد وضوح يستبعد في الوقت ذاته التدخل الرباني والزعم بوجود حقيقة وحيدة.

بين الإلحاد واللاأدرية شدَّد «النبيه»، مستنداً إلى تجربته الخاصة، على الطريق الوسط، وربما الأصعب، التي ينبغي سلوكها، بين الميول المتطرفة، وهي طريق تتطلب الثبات في الجهد العملي والتفكير الفردي والاختيار الشخصي. وإذا كان علينا أن نختصر موقفه، فإن هذه الجملة الإرشادية تعبِّر عنه: «لا تصدق أمراً لمجرد كونه قيل على لسان حكيم، أو لأن تصديقه عام وشائع، أو لأنه مدوَّن في كتاب ما، أو لأنه معروف ربانياً أو لأن أحداً سواك يعتقد به. لا تصدق إلا ما تحكم أنت بنفسك عليه بأنه صحيح». إلا أن الحذر ليس صعباً، فلكي يحكم المرء على نفسه بنفسه، عليه أن يتفحص بانتباه شديد وأن ينظر عن قرب وأن يسأل ويتساءل بلا كلل، باختصار، أن يعمل «كالصائغ الذي يدقق وينقّي ويعيد الكرّة حتى يحصل على الذهب الأكثر نعومة».

هكذا، بعد أن يهتدي شرعاً لا يعود أمامه إلا الإقدام على أمر واحد، وهو أن يباشر العمل بهدف اجتياز سبل المعرفة والتأمل والأخلاق البوذية، من دون أن يغفل الترابط القائم بينها. فهل تكفي حياة بكاملها لتحقيق ذلك؟ ربما يجيب بوذا بنعم، لأنَّه هو قد أنجز ذلك. لكن تلامذته ينفون ذلك، بلا شك، وينفيه كذلك أتباعه اللاحقون، الذين تابعوا بعده بحثاً متجدداً مع كل جيل بل مع كل منتسب جديد.

العقبة الكبرى التي ينبغي تجاوزها بدايةً، من أجل فهم فكرة

Twitter: @alqareah

اللاديمومة، لا على المستوى الفكري فحسب، بل بالمعنى العميق للكلمة، تكمن في التعلق الفطري بالرغبة. بعبارة أخرى، ينبغي الانتقال من دور الممثل إلى دور المشاهد، مع تفكيك الروابط الشائعة تفكيكاً متأنياً، ولكن بالانتباه إلى الآخر. ذلك أن رفض التعلق بالرغبة ليس مرادفاً للامبالاة: أن تنقطع أو تنفصل يعني أن تملك نظرة واضحة عن المجتمع والعالم، وأن تظل مرتبطاً بالرحمة حيال أمثالك من بني البشر وحيال كل من يعيش ويشاركك في الحياة على كوكب هو بدوره ليس أبدياً. وبهذا المعنى يمكن أن ينعقد الأمل بالتوصل إلى التحرر من سلاسل الانبعاثات العمياء، المصنوعة من الرغبة العارمة في الديمومة ومن انجذاب غريزي إلى ألق المظاهر. لقد ظل «النبيه» طيلة حياته يبدو أكثر حرصاً على تقديم حلول مباشرة وملموسة تجعله مفهوماً حقاً، منه على تقديم أجوبة على حسابات يراها في الظاهر عقيمة.

جواباً على أحد تلامذته الذي ألح بالسؤال عما إذا كان بوذا سيكون موجوداً بعد الموت أو لا، فقد أعلن الحكيم ببساطة أن السؤال ليس مناسباً ولا علاقة له بالعقيدة ولا هو يؤدي إلى تبريد العواطف ولا إلى الحكمة ولا إلى النرفانا. ربما هي طريقة في التعبير عن أن مثل هذه الأسئلة نابعة من اضطراب عقلي يحرص ضبط النفس على وجه التحديد على لجمها: وهي أيضاً الفرق كل الفرق بين العالم الظاهراتي الذي هو في متناول الجميع وبين اليقين المعرفي المُعاش في صفاء التجربة الحية، التي تعيق فرادتها وخصوصيتها احتمال أن تكون تجربة مشتركة قابلة للتكرار والتقليد.

٧. التجربة والتأمل

لأن المشاركة في التجربة أو نقلها وتكرارها وتقليدها هو

Twitter: @alqareah

أمر احتمالي غير مؤكّد، فإن الإمكانية الوحيدة لمعرفة التجربة الحياتية تكمن في خوضها. ولهذه الغاية، فإن المفتاح الأساسي الذي جرى توارثه جيلاً بعد جيل هو التأمل. لا شك أن الفكرة ليست جديدة على عالم الهند، حيث تثبتت هذه الممارسة منذ زمن بعيد في صفوف العرافين والآلهة وممارسي اليوغا والنساك والزاهدين، هذه الجماعة المتنوعة المتنافرة من الباحثين عن الحقيقة. ربما تتعقد الأمور هنا، ذلك أن التمرين يحتاج إلى جهد وانتباه ووقت: إن الاستبطان عملية شاقة تحتاج إلى نَفَس طويل لكي تتحقق ذاتياً، بإشراف معلم لا يمكن له إلا أن يوجّه المنتسب أو العضو الجديد.

إن المعركة، إن كانت هناك معركة، هي في البداية مع الذات أو ضدها، أو مع العادات والأفكار المكتسبة، بهدف قهر الميول الطبيعية كالكسل أو الخمول واللهو أو القلق والشك. هذا يعني حاجة إلى الانتباه في كل لحظة وإلى ضرورة استمرار الانتباه ما بعد اللحظة المخصصة للتمرين بحد ذاته ليشمل الدراسة والتفكير والنشاطات والحركات في المُعاش اليومي. وهذا عمل تعليمي يتطلب وقتاً ليؤتي ثماره: لا هي عصا سحرية ولا كبسة زر لكي يتدفق النور، ومثال «النبيه» يشهد على ذلك.

يقع التأمل، بمعنى ما، في صميم الحياة الصحية البوذية. وإذا كان يشكّل، إلى جانب الدراسة، جزءاً من يوميات الرهبان في كل المدارس فهو لا يقل أهمية لدى العلمانيين. يخصص النَّصير للتأمل في المعبد لحظة مع الذات تطول أو تقصر، خلال النهار، ما يتيح له تأمين الهدوء الداخلي والتفكير بعيداً عن القلق المعتاد. كما أن العودة إلى الذات تمنح فرصة الانفتاح أكثر على الآخر مع المحافظة على مسافة منه، ربما ليكون أكثر فاعلية في النشاطات المألوفة حين يكون الانتباه مركّزاً من جديد على هدف محدد.

Twitter: @alqareah

أما عند البوذي الذي يزاول طقوسه الدينية، فإن التماهي بهدف معيّن والتمسك به ليس سوى بداية، بل هو رهان على النجاح. بعدئذٍ يغدو كل شيء منوطاً بالإرادة الفاعلة وبنوعية النية والمقصد، أي بالهدف المنشود. إن على كل واحد أن يأخذ ما يناسبه من الوقت للحظات الراحة هذه؛ ومن نافل القول إن البوذية في البلاد التي يتجلى فيها حضورها اليومي قد تركت بصماتها على جزء كبير من العادات والتقاليد حتى على الصعيد المسمى علمانياً.

من غير المدهش أن تكون حياة الجماعة النسكية مرمَّزة ومنظمة حول هذا المحور المركزي، أي التأمل، بكل صوره وأشكاله وصيغ التعبير عنه. حتى لو مورس بصورة جماعية في قاعات الجمعيات العامة للنساك، فالتأمل لا يتمّ إلا في خلوة مع النفس: لا يمكن لأحد أن يتأمل بديلاً عن أحد. لا شك أن الجو الملائم يساعد على التركيز والتفكير، لكن العمل يبقى عملاً شخصياً فردياً. هذه التجربة الفردية هي حقاً على وجه التحديد المكافأة والغنى والأصالة في آنٍ معاً.

من المؤكد أن المتأمل يتبع نظاماً عاماً وتعليمات معيّنة هي بمثابة معالم تحدد الطريق الواجب سلوكه. إلا أنه طريق لا يخلو من الصعوبات خلال المُضيّ خطوة خطوة نحو الهدف المرسوم. السيطرة على التنفس هي الأساس في عملية تفكيك الإدراكات والمشاعر والأفكار، عبر استبطان ينمو تعمقه بعناية، فيصفِّي حالات الوعي وينقِّيها، وصولاً إلى تأمل محرَّر من الشكل ومن الشروط الشائعة ومن الثنائيات المألوفة. نادرون هم الذين يقدرون، بعد عودتهم من تلك الآفاق البعيدة، أن يَصِفوا حالة الصفاء والمعرفة التي كانوا فيها، أو أن يتقاسموا لذتها وطعمها مع الآخرين، خصوصاً أن المتأمل يحفظ سرابات كانت تتلألأ على جانبيه خلال رحلة التأمل.

Twitter: @alqareah

لا شك أن حياة الرهبنة أكثر ملاءمةً لاتِّباع طريق البوذية، وقد أمكن «للنبيه» أن يجنِّد أتباعه الأوَائل من بين النساك الزاهدين، وغصَّت الصفوف بالمؤمنين خلال حياته، بسرعة كبيرة، لكنها تنظمت وترسخت بصورة جدية بعد غيابه. وساعد على هذا التطور انضمام حكام ماغادا «Magadha» أيام بوذا ثم أبناء عائلات وحكام وعائلات ثرية إلى عقيدته، لكن العنصر الحاسم في نشر التعاليم البوذية وترسيخها تمثّل في شخصية الملك الكبير أشوكا (Ashoka) (269 ـ 232 ق. م.) الذي أمر بنشر النقوش الحجرية في كل أنحاء مملكته، مما يدل على حماس تبشيري، لكن من غير إكراه، في نشر جزء كبير من كلام بوذا أتاح له ضمناً توفير السلم الداخلي على أراضي مملكته. يمكن، بفضل هذه المعالم أن نتتبع اليوم أيضاً، وعن قرب، طريق البوذية في شبه الجزيرة الهندية وخارجها.

VI . ما بعد بوذا

كان من المتوقع أن يثير غياب بوذا الجسدي نقاشات حامية أحياناً بين أتباعه من المؤمنين. أسباب ذلك كثيرة. حيث إن السانغا (الجماعة البوذية) لم تنجُ من ظاهرات ملازمة للوجود البشري كأشكال الحسد والدناءات وكل الخصومات الأخرى. كما أن الصراع على السلطة قد تأجج بعد رحيله، ولم يكن أحد من تلامذته يتمتع بالهيبة اللازمة ليفرض نفسه بسهولة. في المقابل، لم يكن بوذا قد عيَّن خليفة له، مع أن العديد من المقربين له كان في إمكانهم الزعم أنّ لهم حقّاً في الوراثة. من ناحية أخرى، كانت الجماعة البوذية مركّبة من مجموعات صغيرة مشتّتة ومبعثرة أو على الأقل مترحلة كالبدو لا تتجمَّع بأعداد كبيرة إلا في فصل الأمطار. فضلاً عن ذلك، كانت العقيدة قد انتشرت على نطاق

Twitter: @alqareah

واسع في صفوف فئات متنوعة من السكان الحضريين (غير المترحلين)، الذين صارت ممارسة الشريعة (Dharma) عندهم مندرجة أكثر فأكثر في حياتهم اليومية، ما أدى إلى إدخال تغييرات في النصوص وفي روح النص، وإلى ضرورة البحث عما يثبت ما قاله «النبيه» حقاً.

بعد أن اجتاز «النبيه» المجرى وبلغ الضفة الأخرى، لم يبق أمام المؤمنين من أجل الالتحاق به إلا اتّباع الشريعة، الشريعة كما بشّر بها وعلّمها لتلامذته. أما رسالته الوحيدة، إن كان هناك من رسالة، إلى تلامذته الحزانى فهي: «ليكن كل واحد منكم مشعلاً لذاته». «اجتياز المجرى» و«بلوغ الضفة الأخرى» هما عبارتان أساسيتان في البوذية تعنيان بلوغ النرڤانا. ليس المقصود بذلك لا الفناء ولا العدم ولا الانحلال، لا ولا الجنة على طريقة الديانات التوحيدية، بل ربما يكون المقصود، ببساطة، حالة تتجاوز الكلمات، يعود إلى كل فرد أن يشرحها ويفسرها ويحددها لكي يمضي في اتجاهها عن معرفة بالأسباب. هل يحدد دامّا بادا «*Dhammapada*»، أو كتاب الصلوات البوذية القديم ذلك في قوله: «حين يصبح هدفك على مرمى نظرك تشبّث به جيداً»؟ اسلك الطريق وامشِ، فالكائن البشري هو وحده القادر، بفضل حاسته السادسة التي هي العقل أو الوعي عند البوذيين، على فعل ذلك.

في ظل هذه الشروط، وبعد أن تحقق الكائن، تغدو «الصيرورة»، التي يجسدها مثال بوذا، جديرة بأن تُحتذى. غير أن السبل سرعان ما تشعبت وتباعدت، مع أن «الممر المثمّن» بقي هو الطريق الملكي، طريق الوسط. غداة حرق جثمان الحكيم الصامت، حكيم شاكيا «Shâkya»، على خشب الصندل في كوشيناغار «Kushinagar»، جرى التنازع على رماده وانتهى الأمر بتوزيعه

Twitter: @alqareah

على ثمانية أجزاء، الرقم المقدس عند البوذيين، وضعت على أنصاب ثمانية خصصت للتقديس لدى المؤمنين.

لا لأن «المعلم» كان قد شجع هذا النوع من التظاهرات، بل لأن أحداً لا يستطيع أن يكرّس حياته للتأمل والدرس، صار يقتضي على الراغبين أن يفعلوا ذلك تكريماً وإجلالاً «للنبيه». لا مجال للشك، حتى حين يلتبس الأمر في العبارة الشعبية التي تخلط بين بوذا وبين التمثال الذي يجسده، في أن المؤمن لا يصلي لبوذا بل يبجّله ويبجّل تعاليمه. الصلوات تتوجه والنذور تقدم لتلامذته الذين صاروا قديسين (أرهات arhats)، لا يتوسطون الشفاعة في حضرة «الحكيم»، بل يهبّون لنجدة من يتوسل إليهم. وقد تطورت هذه الميول مع انتشار العقيدة ومع مرور الزمن ومع التحولات التي طالت العقيدة على الصعيدين الدنيوي والزمني.

دخلت الطائفة البوذية في حالة اضطراب وبلبلة حين فقدت رأسها وقلبها. فقد كان «النبيه» طيلة حياته البؤرة المرجعية، وحوله كان يتحلق أقرب تلامذته ممن كانوا يرافقونه، غير أن الجماعة لم تكن منتظمة ولا العقيدة مكتملة البنيان، ذلك أن العملية كانت تجري على أرض هندية حيث لم تكن غريزة التجمع علامة فارقة. يشهد على ذلك اثنان من المؤمنين: أناندا (Ananda) الميال إلى الرحمة والإخلاص والتفاني، وماهاكاشيابا (Maha-Kashyapâ)، الميال إلى خشونة التقشف والاعتدال. الأول منهما يجسد الورع الشعبي في حين كان الآخر أقرب إلى الرهبان، وبعدهما جاء ساريبوترا (Sâripûtra) ليمثّل وجه المعرفة «براجنا Prajnâ»، ومودغاليانا (Maudgalyâna) ليمثّل السلطات الخارقة «سيدّي». هذا الرباعي يمثّل التيارات الأربعة الرئيسية المعروفة بصورة مضمرة في التصور العام للبوذية.

Twitter: @alqareah

VII . تدوين العقيدة

إن محاولة وضع نظام ما لهذا الكم الغزير يتطلب بسرعة تدوين التعليمات المبعثرة ألتي كان بوذا قد نطق بها استجابة لمناسبات ولحظات وللذين يخاطبهم أيضاً. كان من شأن انضمام متحدرين كثر من البراهمانية ومن الطبقات العليا إلى العقيدة الجديدة إحداث تعديلات بطيئة على نمط حياة الجماعة، حيث أخذت تبرز قليلاً مشاعر أرستقراطية خاصة بالنساك والباحثين عن الحقيقة خارج أية معايير. فقد اقترح ماهاكاشيابا أن يعقد جمعية لحوالى 500 تلميذ ـ «من المستوى الرفيع» حسب التعبير المعاصر ـ في منطقة راجاغريها «Râjagrîha» لتدوين كلام «النبيه» على الورق، ولتثبيت العقيدة وجمع الكتابات. هذه هي النواة التي انتظم حولها كتاب الشريعة الأقدم المحفوظ بصيغته الأصلية عملياً في آسيا الجنوبية.

غير أن هذا المُناخ الرحب والديموقراطي إلى حد بعيد، المنفتح على الجميع، حيث يتواجد الرهبان والعلمانيون معاً وبصورة طبيعية في حينه ـ القرابين وأعمال التدريس، المساكن وصوامع النسك ـ قد أخلى الساحة سريعاً لصرامة أنظمة أخذت تحتل موقعها في العادات والتقاليد محدثةً قطيعة بين الجماعة النسكية والعالم الدنيوي. وبدأت تتوضح معالم مدارس عدة ما برحت تتفرع وتتباعد مع تباعد الأتباع والسبل المعتمدة في الزمان والمكان عن المصادر الأولى. هذه الرحلة الطويلة جداً انطلقت طبعاً من الأراضي المجاورة.

بعد قرن من الزمان انعقد المجمع الديني البوذي الثاني في فايشالي «Vaishali»، حيث دقق الطرفان الأساسيان في حساباتهما حول العقيدة وشؤون التنظيم. أدى ذلك إلى انكسار حقيقي، إلى

Twitter: @alqareah

انشقاق، حيث أخذت تنمو في البداية عقيدة «القدامى»، كما يسمونها، عقيدة ثيرافادا «Theravada» أو «العربة الصغرى Petit Véhicule»، التي ما زالت منذ ذلك الحين وحتى اليوم حية من غير انقطاع، لا سيما في جزيرة سيلان وشبه الجزيرة الهند ـ الصينيّة. أمّا الفرع الآخر، الذي لم يكنْ في حينه (القرن الثالث قبل الميلاد) إلا برعماً صغيراً غامضاً، فقد بزغ على منعطف الألفية في مدرسة ماهايانا «Mahâyâna» أو «المركبة الكبرى Grand Véhicule»، وشهد بعدها اندفاعة كبيرة منتشراً في آسيا الوسطى وعلى طريق الحرير عبر الأراضي الصينية، وصولاً إلى كوريا واليابان، وصعوداً، في وقت لاحق، إلى الهملايا، ليستقر في أعالي هضاب التيبت.

في الوقت الذي كانت فيه الشريعة الجديدة تطبع بطابعها، أكثر فأكثر، المناطق التي تنتشر فيها، كان يتعاقب ملوك وحروب وإمارات في العالم الدنيوي. وفي ظل حكم أشوكا (Ashoka) انعقد المجمع الديني الثالث في باتاليبوترا «Pâtalipûtra» (باتنا Patna حالياً)، ووضعوا الصيغة النهائية لشريعة بالي الهندية القديمة (تريبيتاكا Tripitaka أو المقصورات الثلاث) تحت اسم ڤينايا «Vinaya» أو النظام النسكي «discipline monastique»؛ وكذلك حرَّروا نص السوترا أو كلام بوذا «Sûtras»، والعقيدة البوذية أو الأبهيدارما «Abhidharma». وقد أعطى الإمبراطور دفعاً أكيداً وحاسماً للشريعة الجديدة طالباً نشر مفاهيمها الشديدة التأثير بفضل طابعها السلمي والمسالم، في أربعة أرجاء المملكة. كانت بداية الألفية قبل المسيح تعج بالأفكار والنقاشات، لكن القليل منها عثر عليه خارج النقوش الحجرية، وصولاً إلى حكم سلالة جديدة هي سلالة الكوشانا «Kushana»، التي اشتهرت بحكم كانيشكا «Kanishka» (78 ـ 110 ميلادية).

Twitter: @alqareah

في حين كانت تتجذر «مدرسة القدامى» في جزيرة سيلان وفي الأراضي الهندية راح تياران كبيران يؤسسان مدرسة ماهايانا «Mahâyâna» ـ مادياميكا «Mâdhyamika» ويوغاشارا «Yogâchâra». كان ناجارجونا «Nâgârjuna» وأرياديڤا «Aryadeva» من أصول التيار الأول المسمى بـِ «ممر الوسط» الذي شكّل أساس التقاليد القادمة من الصين واليابان إلى التيبت «Tibet» أمّا أسانجا «Asanga» وڤازوبهاندو «Vasubhandu» فيمثّلان «مدرسة المعرفة» المستندة إلى ممارسة اليوغا أو إلى التأمل. ولم تكن العلاقات بين هذين التيارين دوماً على أحسن ما يرام، ولم يمنع ذلك من أن يتحول كل منهما إلى حجر الزاوية في التطور الفلسفي من بين المذاهب الأكثر خصوبة في البوذية.

على خلاف تيار تيراڤادا، الميال إلى حالة أرهات «Arhat»، أي إلى إطفاء العواطف داخل النفس وكل صنوف التعلق أو الرغبة في الحياة لبلوغ النرڤانا بعد الموت، كان أنصار مهايانا غير راضين أبداً عن هذا المثال الأعلى الأناني لأنه لا يخص إلا الفرد، وكانوا ينظرون إلى أبعد من ذلك، ويتطلعون إلى أن «ينبّهوا» أنفسهم من أجل مساعدة سواهم على سلوك هذا الطريق: أي المُضيّ في أبعد مما مضى فيه بوذا، ذلك أن في داخل كل امرئ مثل هذه الطاقة التي ينبغي تطويرها وتنميتها وجعلها السلاح الأمضى الذي يضع حداً للجهل. هذا هو البحث عن مثال بوديساتفا «Bodhisattva»، المقطوع عن الكل، إنما الموصول بالرحمة الفاعلة إلى أقرانه رافضاً، من أجلهم، النرڤانا التي تخصه، رغبة منه في مرافقتهم على الطريق.

انطلاقاً من ذلك تغتني العقيدة البوذية بصور متنوعة وبكائنات نافعة أو شرسة تتقاسم أدواراً معيّنة في مؤازرة كل الكائنات على مواجهة هموم الكون. لقد تحوَّلت البوذية من دواء

Twitter: @alqareah

عملي للآلام الدائمة إلى قراءة للعالم مع ما يترتب على هذا المنحى من تأويلات وتفسيرات. لكنها، وهي تنفتح على التأملات الفلسفية الجافة، صارت أيضاً أسهل فهماً على فئات السكان في أدنى الهرم الاجتماعي التي تلجأ إلى «النبيه» بحثاً عن عزاء وحماية. في هذه المقاربة المزدوجة تناقص بين مجرد التطابق والتلاؤم مع الضرورات الفردية والتكيف مع العادات المحلية في المناطق التي تجوبها البوذية.

VIII. تنوع وانتشار

عملية الفتح البوذي السلمي كانت سريعة نسبياً. لكل بلد تاريخه الخاص بدخول الشريعة الجديدة إلى أراضيه. جزيرة سيلان اضطلعت بمهمة ماهيندا (Mahinda) وسانغاميتا (Sanghamitta)، ابن الإمبراطور أشوكا (Ashoka) الذي كان لمزاياه دور حاسم في إقناع ملك الجزيرة وهدايته. في برمانية «Birmanie» كان الفضل لحماسة تاجرين عاشا في القرن الثالث ق.م. جلبا معهما من السفر إلى الهند بعض شَعرات من شَعر النبيه، أي أنهما جلبا بعضاً من رفاته الأصلية الثمينة، حصلا عليها من معبد شوي داغون «Shwe Dagon» في رانغون «Rangoun». وبعد ذلك جاء دور سيام «Siam» وكمبوديا بيسر وعسر تبعاً لأمزجة الملوك وحاشياتهم، بالتجاذب بين تياري الجنوب والشمال أحياناً وتهجينهما أحياناً حسب الظروف، ولكن مع تخليد تلك المرحلة بآثار رائعة ما زالت ماثلة في المدن الحالية.

مع دخول البوذية إلى الصين قبل عامين من ميلاد السيد المسيح اعتُبرت في البداية نسخة «بربرية» من الطاوية وأحرزت نجاحات مع مرور الأيام. وحصلت حركة ترجمة مكثفة للنصوص

Twitter: @alqareah

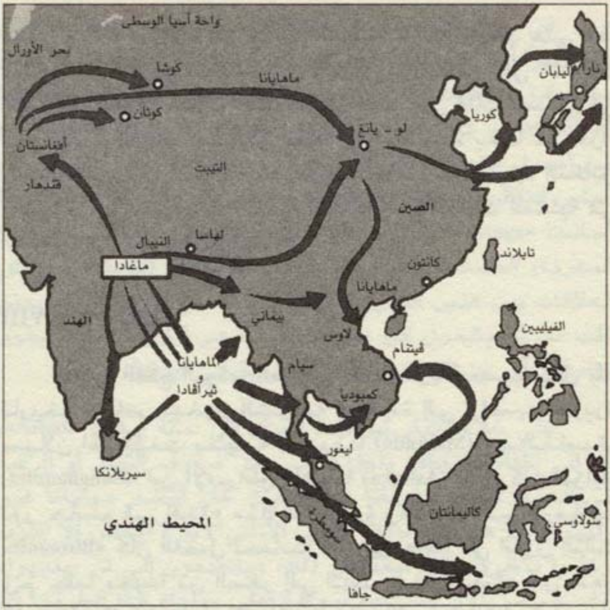

انتشار البوذية

أتاحت، بالتالي، تبديد بعض الالتباسات وأدت إلى ظهور مدارس فكرية عديدة، توافق تطورها مع خيارات المؤمنين. في القرن الرابع حمل بعض الرحالة همَّ البحث عن النصوص التأسيسية فراحوا يجلبونها بالعشرات لترجمتها سريعاً ولحفظها. وقد كان لكل من فاهسيان (Fa-Hsien) وسوان تسانغ (Hsüan-tsang) مشاهدات وملاحظات دقيقة وثمينة خلال أسفارهما. في القرنين الخامس والسادس تعرَّضت العقيدة البوذية لموجات تدميرية قاسية، لكن مؤقتة، غير أن «النبيه» استمر بمسيرته وبلغ الذروة

Twitter: @alqareah

في القرن العاشر، حين أخذت المدارس طابعها الصيني فعلاً. وترسخت أفكار بوديدارما (Bodhidharma) الذي جلب معه من الهند كتاب شان *«ch'an»* الذي يركِّز على أولوية التأمل. إلا أن السلطة الصاعدة لمعابد البوذيين اتخذت شكل التحدي للبيت الملكي الذي لم يعدم وسيلة للحد من نفوذ هذا الخصم المحتمل. رغم كل التقلبات تركت البوذية بصمات خالدة على الحضارة الصينية لا تزال ماثلة حتى اليوم.

في منطقة إنسولاند «Insulinde» نصبت التماثيل الأولى لبوذا في القرن الثالث الميلادي، وانتشرت العقيدة في سوماطره وخصوصاً في جاڤا «Java»، حيث يدل تمثال بوروبودور Borobodur الرائع على روعة العصر في ظل حكم سايلاندرا (Sailendra) في القرن الثامن. إن نسخة ماهايانا *«Mahâyâna»* هي التي انتشرت بصورة أساسية، مغتنية بميثولوجيا يتحاذى فيها بوديساتفاس (bodhisattvas) وبوداس (Bouddhas)، وذلك استجابةً لحماسة شعبية متنامية. غير أن العقيدة الأساسية تنوعت وتفرعت هي الأخرى بفعل الإضافات التي وفرتها أعمال البحث والنقد والتأويل بأقلام بحاثة لامعين لم يكونوا فحسب حكماء بل أطباء أيضاً. رغم الاستقبال الحذر للبوذية، حوالى 552 م في اليابان حيث كانت فرقة زن Zen البوذية ناشطة، إلا أن اليابان انفتحت على الشريعة دارما Dharma عن طريق كوريا، وفي الوقت ذاته كانت سيام قد دخلت بدورها إلى العقيدة، وفي تايلاند انتشرت البوذية وصارت تمثِّل الديانة الرسمية للبلاد.

شقَّت البوذية طريقها واجتازت جبال الهملايا منذ القرن السابع بعد أول غزوة سلمية على هضاب التيبت، وبدعوة من الملك سونغ تسن غامبو (Song-tsen Gampo) واثنتين من نسائه الخمس، إحداهما من النيبال والأخرى صينية، وكلتاهما متحمستان

Twitter: @alqareah

للدين الجديد. كان على العقيدة الجديدة مواجهة المعتقدات الدينية المحلية التي استسلمت أمام الحكيم الكبير الساحر بادماسامباڤا (Padmasambhava) ضيف مملكة أوديانا «Oddiyana» (وادي سوات Swat في باكستان الحالية) المدعو من الملك تريزونغ دتسن (Trisong Detsen)، الذي شيّد عام 775 أول معبد بوذي في ساميـيه «Samyé» على أرض التيبت. تلت ذلك مرحلة من الاضطهاد بسبب خصومات عائلية ودينية، ثم نهضة قوية في القرن الحادي عشر، بفضل أتيشا (Atisha) القادم من جامعة ڤيكراماسيلا «Vikrâmasîla» الهندية الكبرى بهدف إعادة الحياة إلى ديانة تنوء بضَعْفها. منذ ذلك التاريخ توزع النشاط البوذي بين ثلاث مدارس أساسية، نيانغمابا «Nyingma-pa»، ساكيابا «Sakya-pa» وكاغيبا «Kaguy-pa»، أمّا المدرسة الرابعة جيلوغبا «Gelug-pa» فقد فرضت نفسها في القرن الرابع عشر بدفع من الإصلاحي تسونغ كابا (Tsong-Khapa)، وإليها تنتمي سلالة الدالاي لاما Dalaï-lamas.

بالتوازي مع هذا التوسع على معظم أجزاء القارة الآسيوية كادت الديانة البوذية تنقرض، للمفارقة، على أرض منشئها، وعادت الهندوسية إلى الواجهة، في حين راحت البوذية تستعير منها كثيراً من الملامح وتُدرجها خلسة في بنيتها كالابن الضال. ثم وجهت لها الفتوحات الإسلامية الضربة القاضية حين دمرت معابدها وجامعاتها الدينية وأحرقت مكتباتها وقطعت رؤوس الرهبان والمتمردين. وما زالت المواقع الأساسية مهملة وإن ظلت ذكراها قائمة وشاهدة على عمق تأثيرها على الفكر الهندي. أعاد الفضول الغربي والبحوث المعمّقة الاهتمام الخجول بالبوذية؛ وساعد على ذلك، في النصف الأول من القرن العشرين، انتشار موجات من الهداية في صفوف الفقراء، في عهد ب. پ. أمبدكار

Twitter: @alqareah

(B. P. Ambedkar)، السياسي المجدد الذي استقوى بالعدالة التي تتميّز بها الديانة البوذية ووظفها في صراعه ضد نظام الطبقات المغلقة. وكان لمجيء لاجئي التيبت إلى الهند خلال نفي دالاي لاما عام 1959 دور حاسم أيضاً في انبعاث البوذية في عرينها وفي إعادة تأهيل مواقعها الكبرى في التعليم والحج والذاكرة.

Twitter: @alqareah

الفصل الخامس

التنظيم: تنوع داخل الوحدة

الموت يعني أن نبدّل الجسد
كما يبدّل الممثلون الأقنعة.

بلوتين

منذ أيام «النبيه» لم يكن شيءٌ مألوفٌ أكثرَ من أخوية الرُّحّل من الباحثين عن الحقيقة، أفراداً أو جماعات صغيرة وكبيرة وزهاداً، شكّلوا على الدوام جزءاً من المشهد الهندي. أول أتباع الديانة الجديدة لم يشذوا عن الحالة، بل انخرطوا بسهولة في المشهد التقليدي غور ـ شيلا Gurû-chela أو المعلم ـ التلميذ. مع نهاية وجود بوذا الأرضي لم تكن أية بنية تنظيمية قد وجدت حقاً، ولم يكن قد تحدد من سيخلفه في قيادة الجماعات، وكان على كل واحد، حسب مزاجه، أن يختار طريقته في اتّباع التعاليم ونشرها.

أما القواعد المُصاغة تباعاً والمعتمدة من قِبل الرهبان فهي مستلهمة من المبادئ المكتسبة سابقاً بحكم العادة. يقوم الانخراط في الجماعة على «اتخاذ معتصَم Prise de refuge»، ثم الالتزام باحترام عشرة تعليمات جوهرية، كلها سلبية. أول خطوة على

Twitter: @alqareah

طريق «النبيه» هي «اتخاذ معتصَم»، وهي مشتركة بين كل البوذيين أو كل الذين يعتبرون أنفسهم بوذيين، بصرف النظر عن المدرسة أو البلد أو المرحلة الزمنية، وهي الصلة الثابتة المستمرة المتوارثة من جيل إلى جيل على مرّ الزمن. الصيغة بسيطة: «أعتصم ببوذا، أعتصم بالشريعة Dharma، أعتصم بالجماعة Sangha». بوذا والشريعة والجماعة يشكّلون الجوهرات الثلاث في البوذية.

أهل التيبت يضيفون إليها بصورة عامة «الاعتصام بالمعلم» (لاما Lama أو غورو Gurû)، من هنا لفظة «لامية» كمذهب (مشتقة من لاما) التي ينسبها الباحثون الغربيون إلى ڤاجرايانا (Vajrayâna)، وهي تسمية غير معروفة عند أهل التيبت بل أنهم يرفضونها بحزم. وعلى ذمة البحّاثة من أهل التيبت ليس ڤاجرايانا أو «عربة الماس» سوى استمرار لتطور الفكر البوذي ومتابعة له من جانب العقلاء (الحكماء) والنساك في الهضاب العالية، وليست انحداراً هجيناً في الممارسات السحرية كما وصفها بعض المختصين الغربيين الذين استمدوا معلوماتهم على عجل، مع بدايات القرن العشرين. الحقيقة أن ڤاجرايانا وممارساته الخاصة في التأمل هما، في نظر الممسكين الأصليين بتراث التيبت، الابن الطبيعي لماهايانا Mahayâna ومتجذران في الأساس المشترك لتراڤادا «Theravâda» أو هينايانا «Hinayâna».

الاعتصام ببوذا، وهو صالح للعلماني ورجل الدين على حد سواء، يكفي لكي يعتبر العلماني مؤمناً ببوذا، ويبقى بالتالي خاضعاً للقواعد الاجتماعية ويعمل وفقاً للعادات والتقاليد السائدة في عصره. أما رجل الدين فعليه أن يجتاز عتبة الحياة العلمانية ثم ينذر نفسه للوصايا الأساسية العشر التي عليه، بعد ذلك، أن يحترمها بكل حزم: «لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا للمفاسد، لا

Twitter: @alqareah

تـأكل خـارج الأوقـات المـحـددة، ازهـد فـي سـريـر أو مـقـعـد عـال، لا تقبل فضة ولا ذهباً (ولا أي نوع من النقود)».

على مرّ الأزمان والأمكنة أضيف إلى هذه النذور والوصايا الأساسية عشرات مثلها تُكملها وتكون محل احترام وموضوع التزام في صفوف الجماعات النسكية البوذية، مع خصوصيات محلية بالتأكيد.

I. النظام الرهبني

لحظة البوح بهذه النذور والوصايا، تبدأ مرحلة اختبار تتفاوت مدتها. بعد ذلك يدخل المترهبن الجديد في النظام الروحي أو لا يدخل. وبعد تجديد القَسَم هذا في احتفال جلل تتثبت سيامة الكاهن (بيكشو Bhikshu)، بمعزل عما إذا كان حراً وعن موافقة والديه وعن سنه وعما إذا كان قد ارتكب جريمة أو إذا كان مصاباً بمرض مُعدٍ. من تلك اللحظة يصبح ملزماً بالخضوع للنظام الرهبني وللطقوس، ولكنه يحظى، وهذه خصوصية في البوذية دون سواها، بحريته في مغادرة الجماعة على هواه. وهكذا فخلال الاجتياح الصيني، عام 1950، للأديرة الكبيرة في التيبت جرت مسيرات شرقية ثم حول لاسا «Lhassa»، قدم فيها مئات الكهنة «نذورهم» للأعلين أو للأمراء للحصول على أسلحة ومقاومة المحتل. وحدها الخروق الخطيرة (قتل، سرقة، دجل) من شأنها طرد المذنب من الجماعة.

تقديم النذور، يعني الالتزام في الحياة الدينية، ويبيح التحلل من واجبات الحياة الدنيوية أو الاجتماعية، بالتالي التحرر من أي انتماء إلى طبقة أو فئة مغلقة، أي إلى نوع معيّن من البشر. استناداً إلى تأويلات ومحاججات لاحقة قيل إن «النبيه»، بعد أن

Twitter: @alqareah

وضع أسس تنظيم الجماعة (سانغا)، صار متحفظاً على تأسيس حلقة نسوية موازية. تلميذه الوفي أناندا (Ananda) هو الذي عدل عن القرار مبرراً ذلك لمعلمه لا بالإخلاص الأنثوي فحسب، بل بإخلال التوازن في المجتمع إخلالاً خطيراً بعد أن جذب إلى صفوفه عدداً كبيراً من الشُبان والكهول من كل الفئات. في نهاية الأمر نشأت الأخوية النسوية على يد ماهابراجاباتي غوتامي (Mahâprajâpati Gautamî)، شقيقة مايا (Maya)، والدة سيدارتا (Siddhârta)، التي أقامت المعبد بعد موت سيدارتا، أي بعد أسبوع على ولادة الطفل المعجزة.

باستثناء حالات نادرة لم تلعب الراهبات دوراً أساسياً في تاريخ البوذية وفي تطورها. كنَّ ملزمات بمواقف إكراهية أكثر من الرجال وكنَّ يعطينهم حق التصدر، هذا فضلاً عن أن السلالات النسائية كانت أكثر تواضعاً من السلالات الذكرية. في المقابل، لمعت الاستثناءات وتوهج بريقها، خصوصاً في البوذية التيبتية حيث لم تنفصل صورة الطاقة الأنثوية المتحولة إلى حكمة عن النشاط العملي للبوذيين. وما يثير الانتباه أكثر هو التحول الذي طرأ خلال المسيرة على أفالوكيتشفارا «Avalokiteshvara»، بوذية الرحمة اللانهائية في مهايانا ***«Mâhâyana»*** الهند الشمالية «صوت العالم وضوءُه» إلى كوان ين (Kouan-Yin) في الصين وكانّون (Kannon) في اليابان بملامح نسائية لا يرقى إليها الشك.

ليس مستبعداً أن الربات والآلهة النسوية في الممالك الروحية ذات الأصول الهندية لم توفر للطلاب الذكور كثيراً مما كانوا يتمنونه. أما الباطنية (تعليم الخاصة) البوذية أو الهندية فهي تدين لهن كثيراً، تشهد على ذلك، عن طريق التنافس، نصوص تانترا (Tantras) المتمحورة على شاكتي «Shakti» أي الطاقة أو القوة الخلّاقة التي من دونها تبقى الآلهة ذاتها بلا فاعلية. أما

Twitter: @alqareah

تانترا (tantra) الفرع الذي اعتبر أحياناً بمثابة انحراف عن «المركبة الكبرى» فهو متحدر من الممارسات الروحية الأكثر تبلوراً المستندة إلى اليوغا، وهي تتطلب مستوًى عالياً من الانضباط الشخصي. نصوص تانترا التي دمجت المعتقدات الشعبية في العقيدة الأصلية تضم أربعة أصناف: كرياتانترا «Krîyâtantra» للطقوس الدينية، شارياتانترا «Châryâtantra» للسلوك الرهبني، يوغاتانترا «Yogatantra» للتعاليم السحرية، أنوتارا يوغاتانترا «Anuttarayogatantra» للتعاليم السرية. هذه المختارات المُعدّة منذ القرنين الرابع والخامس جرى تثبيتها بين القرنين التاسع والثاني عشر، كما جرى تثمين قيمتها في بلاد البنغال أولاً وفي كشمير «Cachemire» ثم في التيبت ومنغوليا. غير أن الدالاي لاما الرابع عشر يرى أن هذه التعاليم تصنّف سرية لأنها، ببساطة، تتطلب لكي تُفهم وتُمارس بعد احتفال المسارَّة بصورة جيدة، تحضيراً متيناً مسبقاً وفهماً واضحاً للمراحل السابقة، أي بعبارة أخرى دراسات رهبنية دقيقة على امتداد سنوات.

II. المصادفات المحلية

المصادفات التاريخية المحلية جعلت ظروف حياة الجماعات البوذية متنوعة. ففي زمن السلم والوفرة، وكليهما أمر نسبي، اتخذت الرهبنات شكل جامعات فعلية ومراكز للبحث مزودة بمراكز للتجارة والتبادل وملاصقة لأماكن العزلة للنساك. وفي القرى والجبال كانت الأبنية أكثر تواضعاً، تستخدم كمحطات للسكن والتعلم وكمراكز للدراسة، وحتى للعناية الصحية والنفسية، فقد يصادف أن يكون بعض الرهبان بمثابة أطباء أو من عَبَدة الطبيعة والقوى الخفية أحياناً، ذلك أن بوذا بالذات اعتُبر دوماً

Twitter: @alqareah

أفضل الأطباء. ولم يكن فحسب يدل على طريق الحياة ويعلم أيضاً أن يدجن الخوف من الموت ويسلسه حتى، إن أزفت الساعة، لا يكون رعب ولا ندم. وفي حالات القلق والاضطراب كانت الفرقة البوذية تقوم بتهدئة الخواطر، خاصة إذا غابت الخصومات المؤججة للخلاف بين الجماعات البوذية، وكانت تسعى إلى حل صراعات على السلطة قد تنشب بين سلالات متنافسة أو مدارس متخاصمة.

تبعاً للمواقف والظروف المحيطة كان الراهب (أو الراهبة) يعيش حياة صارمة موزعة على ممارسة الطقوس وحلقات النقاش والوجبات المشتركة وساعات الدرس أو التأمل في معتزل. في حوزته الحد الأدنى من الأشياء التي يحتاجها، ثلاثة أثواب، قصعة يضع فيها طعام الحَسَنة، وقربة للماء، خيط وإبرة، وشاح، وخُرج يتسع لكل هذه الأغراض. في المناطق الحارة كان يستخدم واقياً من المطر وفي البلاد الباردة دثاراً فضفاضاً وجزمة. لباسه الذي يميِّزه كراهب، بكُمّ أو من غير كُمّ، يختلف قليلاً من حيث الشكل وكثيراً في اللون حسب المناطق، بين الزعفراني والليموني في البلاد المشمسة، والأحمر البنفسجي أو الرماني في جبال الهملايا القاسية، والبني أو الرمادي في كوريا والأسود في اليابان.

العلمانيون لم يكن لديهم مثل هذه الهموم. في بعض البلدان (برمانية، لاوس، تايلاند، كمبوديا، سريلانكا) تمارس عادةً عملية البحث الصباحي عن الطعام. في بلاد أخرى كانت الأعطيات توضع في الأديرة أو في المعابد. القيام بهذا الواجب ظل المهمة الرئيسية أمام المؤمنين الذين استمروا بإنجازها جيلاً بعد جيل، وكان يتولى الأعضاء الجدد تأمين الوفاق الاجتماعي وسلامة التلاوات والتراتيل حين يتطلب الأمر ذلك. أما الحج فقد استمر واحداً من الطقوس الرفيعة الشأن في العبادات الشعبية، احتراماً «للنبيه» وتقرباً منه وتمسحاً بآثاره، في مسقط رأسه أولاً، ثم في

Twitter: @alqareah

أماكن أخرى بعيدة في المواقع التاريخية، حيث تقول الأسطورة إنه هاجر أو ظهر، وذلك بالتطابق مع المخيال الجماعي. وبصرف النظر عن القيمة المعرفية للنصوص وللنقاشات المعمقة وللتأملات الفقهية الفلسفية، فإن هذه الاستقامة المتواضعة شيدت، يوماً بعد يوم، وقرناً بعد قرن، وبصورة رائعة على الأغلب بالمعنى الدقيق، خلود رسالة عرفت بلطفها ورفقها أن تعمر آلاف السنين.

إذا كان كل البوذيين متفقين على جوهر «الحقائق النبيلة الأربع» وعلى «الممر المثمَّن»، إلا أن السبل للوصول إلى اليقظة (النباهة) وبلوغ النرڤانا شأن متعلق بخيار فردي، ذلك أن طريق البحث يختلف بين مزارع أرز في الريف التايلاندي وفلاحة في مرتفعات شيتاكونغ «Chittagong»، ومترحل من إحدى القبائل في أعالي هضاب هملايا، وناسك في معبد سريلانكي أو كوري، وأحد البوذيين الجدد في الغرب، أو لاجئ من ڤيتنام أو منطقة التيبت إلى خارج حدود آسيا.

III . التبحُّر في الدين

حياة الجماعات الدينية في كل العالم تكاد تَتَشابَه، ولا تتغيّر إلاّ في ظل الاضطرابات والانقلابات الاجتماعية والحروب، وفي عمليات التحديث المتسارعة المعاصرة. تعود ديمومة نجاح العقيدة أساساً إلى قدرتها على التكيف والانفتاح على اعتماد عناصر مستجدة ومغايرة يمكن أن تكون مقبولة في الإيمان الشعبي. الحقيقة، باختصار شديد، أن الفيلسوف الكبير يُشبع نهمه الفكري بالعودة إلى كبار الفقهاء البوذيين، في حين يمكن للمؤمن البسيط أن يعبّر عن إيمانه أمام إله يختاره بين أرهات (arhats) وبوديساتڤا (bodhisattvas) المنتشرين في عالم المهايانا «*mâhâyana*».

Twitter: @alqareah

بدأت عملية وضع نظام للعقيدة بعد وقت قصير من وفاة «النبيه»، ومع مرور الوقت ظهر مفكرون لامعون طبعوا تطورها بطابعهم لفترات طويلة. نذكر من بين المؤسسين: ناغارجونا (Nâgârjuna) وأرياديفا (Aryadeva) (القرن الثاني للميلاد) مؤسسا «طريق الوسط»، وأتى بعدهما بودا باليتا (Buddhapâlita) (القرن الخامس)، شانتيديفا (Shântideva) (القرن السابع)، شاندراكيرتي (Chandrakîrti) وشانتيراشيتا (Shântirashita) وكملاشيلا (Kamalashîla) (القرن الثامن). في موازاة ذلك تطورت اليوغاشارا «Yôgachâra» (من يوغا) على يد أزنغا (Asanga) وفازوباندو (Vasubhandu). وبدا تأثير هاتين المدرستين، اللتين تشكلان أساس «المركبة الكبرى» وجذرها، كبيراً في تطور العقيدة في الصين واليابان والتيبت.

بوديدارما (Bodhidharma)، علاّمة من جنوب الهند، كان وراء تيار شئان (Ch'an) الذي تحدر منه زن (Zen) الياباني، سلك طريق البحر متوجهاً إلى كانتون «Canton» وقطع الإمبراطورية من منطقة الوسط قبل أن يستقر بمعبد شاو لان «Shao Lin». من موقع إيمانه الراسخ بالتأمل «Dhyâna» طريقاً مباشراً إلى اليقظة (النباهة)، لم يُعِر وزناً للنصوص المقدسة، اقتناعاً منه بلاجدوى الطقوس وبأهمية التجربة التي يُهيِّئُها بأفضل صورها تحقيق العزلة (شانياتا Shunyâta). غير أن ممارسي شئان وزن يحرصون على أن يحددوا مرحلة «النقل الصامت» الأول، بعيداً وراء الكلمات والمعرفة العقلية، ويرون أنها بدأت أيام بوذا، وعلى وجه التحديد بينه وبين تلميذه كاشيابا (Kashyapa)، خلال اجتماع عام في «قمة النسور» في راجاغريها «Râjagriha».

كان التلامذة الصينيون مترجمين مهتمين ذوي مستوى، وكان لموهبتهم وعنادهم الفضل الأكبر في حفظ الأساسي من

Twitter: @alqareah

الشريعة البوذية في ظل ظروف استثنائية في الغالب، بينما انهارت العقيدة في الهند. أما اليابانيون الذين تعلموا على أيدي معلمين صينيين فقد أضافوا، بفضل موهبتهم لوناً خاصاً على الزن (Zen) المخلّدة في كتابات (Haïkus) شعرية لا مثيل لها وفي لوحات ومنحوتات فائقة الغنى. ومع بداية القرن السابع لعب تلامذة من التيبت هم أيضاً دوراً مرموقاً في الترجمة والممارسة، وقد أضفت عليهم الظروف الخاصة ببلادهم طابعاً محافظاً غير مسبوق، وذلك حتى نهاية القرن العشرين.

IV. التُّقى والعبادة

هكذا انتشرت البوذية في مسار الأيام والأزمنة في منطقة واسعة من القارّة الآسيوية، وعرفت، مثل كل فكر بشري، لحظات عز ولحظات مظلمة في ظل أشكال الاضطهاد والصراعات، وفي اللحظات الحرجة كان يظهر من يواجه التحدي ويؤمِّن حمل الرسالة. وهكذا أيضاً عرفت العقيدة كيف تستمر بفضل الحماسة الشعبية التي وجهت عنايتها بالتماثيل وطرق الحج، مضيئة، بلا انقطاع، الشعلة الصغيرة الذاوية أحياناً. وهي كانت أكثر من مجرد عبادة، بالمعنى الدقيق للكلمة، لشخصية مؤلَّهة، بل كانت نوعاً من الولاء والاحترام تمجيداً لرجل تحدى الأعراف ولكلام ملهم، لرجل استخدم العقل والتفكير بصورة كاملة ليسبر غور الحقيقة، فتتحول المعرفة إلى يقظة (نباهة). حين هدد التهاون والجمود، أو بالأحرى الفساد، بتخريب الجماعة الدينية عرفت الأديرة، وهي، للمفارقة، أفضل تنظيماً وتجانساً في الهند منه خارجها، كيف تتصرف، فحمت نفسها من الاضطرابات ونجت من الخراب.

الأماكن البعيدة، في الجبال بصورة أساسية، وفّرت ضيافة قاسية للنساك والزهاد الأشد عزماً لكنها أمّنت لهم الحماية، وفي

Twitter: @alqareah

المقابل سعى منهج القراءة الذي نصح به «النبيه» إلى التخفيف من متاعب الحياة اليومية في العالم الدنيوي. إن فكرة الترابط التي تضمر قانون السببية، وهي في أصل الشريعة، لم تقض، بالتأكيد، على الآلام المشتركة لدى الكائن البشري، لكن التقيد بالواجب اليومي ربما يتيح له أن يلجم الميول السلبية التي من شأنها تخريب مجتمع البشر.

إن الأمل، لا بجنة الخلد العزيزة على المفاهيم التوحيدية، بل «بأرض طاهرة»، حيث يخلو الوجود من الخشونة، وهو وجود فانٍ طبعاً، يمكن أن يشكّل ضمانة لعلاقات الفرد بأقرانه. مع ذلك لا حاجة أبداً إلى جعل المؤمنين بالشريعة مُثُلاً عليا في الفضيلة، ذلك لأن الطبيعة البشرية هي هي الطبيعة البشرية، وما يجعلها تتغيّر هو التربية والقوانين الاجتماعية، وخصوصاً احترام الحياة بصورة عامة احتراماً يتربى المرء عليه منذ نعومة أظفاره فيعبّر عنه باحترامه الآخر وبميله إلى إخماد الصراعات لا إلى إضرامها حتى حدود الانفجار. كما أن الفكرة الراسخة في الموروث عن أن الموت ملازم للحياة وأنهما مجرد عبور بين أشكال الوجود تتلاحق بمشيئة دفق من طاقة كونية شاملة لا بداية لها ولا نهاية، توفر، بالضرورة زاوية نظر مختلفة عن تجربة الحياة البشرية: الأفضل أن تُعاش لا أن يُبحث عن حل لها بصفتها مشكلة. وفي ظل هذه الشروط تملي الحياة مسؤولية فردية حيال الذات، بالتالي حيال المجتمع الذي يعيش المرء في حضنه. رغم كل شيء، ما زال زمان انتشار العقيدة ماثلاً بمقاييس التاريخ البشري، وما زال يجري التداول في بعض المعابد البرمانية بطرفة تضفي بريقاً غامضاً على ما يتمناه المرء: في الخارج حيث الاهتمام الصادق بدراسة الشريعة يتمنى المرء، حين يُبعث حياً، أن يولد بوذياً، وفي برمانية «Birmanie» على وجه الخصوص، إذا أمكن ذلك.

Twitter: @alqareah

طويل هو طريق النرڤانا، إلا أن المعالم المزروعة في السهول والغابات والجبال، والمعابد الخربة أو تلك المتوهجة بالأحمر الزاهي تفرض، في الغالب حالة من الصفاء والإشراق. وفي الصمت المحاط بالظلمة يشع بصيص من النور، واكتست طقوس البدايات وشعائرها، وبأشكال شتى، لا سيما في جبال هملايا وسهول منغوليا حللاً فريدة. ففي مواعيد الطقوس وأوقات اللقاءات نصف السنوية بين الكهنة والتلاوة الجماعية للنصوص، إنعاشاً للذاكرة واستحضاراً للتعاليم، وفي احتفالات المآتم أو تلك المتعلقة بالأطوار القمرية، يخيِّم على الحضور نوع من الصمت الحي، هو صمت الإصغاء والمشاركة الحثيثة من داخل النفس، كما لو أن العالم الخارجي امَّحى وتلاشى ولم يبق إلا اللحظة الحاضرة.

الحضور في اللحظة ربما يكون أحد المفاهيم الأساسية في البوذية، أي أن يتعلم المرء ويعرف حتى أعمق أعماقه أن الأمس لم يعد موجوداً وأن الغد قد لا يأتي. يقول مثل مأثور في التيبت «ليس معروفاً من سيأتي أولاً، الغد أم الموت». الاسترخاء لتطويع اللحظة المحتمة هو، على وجه الاحتمال، أحد المفاتيح الأساسية في العقيدة، فهو يتيح السيطرة على الخوف والعيش بكامل الوعي حتى لا يكون هناك ندم، ولا يعني ذلك أن ألم الفراق ووجع الخسارة وعذاب الرحيل أو حزن الحِداد يمكن أن تزول كلها بسحر ساحر. غير أن هذه اللحظات الصعبة على كل إنسان تندرج في مقاربة تشارف فيها ركائز الكون على اللانهاية: إنه البُعد الوحيد الذي يتيح للمرء أن يعيش داخل حدود اليومي.

تقنيات التأمل تساعد على تخطي مراحل التعلم، هذا ما تدل عليه نماذج المعلم المكتمل والنصوص المتداولة حتى اليوم في أوساط الرهبنة البوذية وفي طقوس الموت أيضاً. في سياق اعتماد

Twitter: @alqareah

هذا المنطق وقبول منهج القراءة هذا للعالم أمكن لملايين البشر على امتداد الأجيال وعلى طول خمسة وعشرين قرناً أن يضفوا معنًى لعبورهم على هذه الأرض. أما الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير فقد وسعوا بحثهم وارتضوا أن يجعلوا أنفسهم مادة لتجربة عمليات الاستبطان، في حين تكتفي غالبية المؤمنين بالتكيف، ضمن إمكاناتهم المتاحة، مع المفاهيم الخمسة التي تحدد طبيعة الانتماء إلى البوذية. إطفاء الحقد بإخماد أنانية الرغبة من أجل احترام الآخر ومشاركته، ذلك كان بمثابة رهان أطلقه حكيم شاكيا «Shâkya»، لكن الرهان الذي بدا ضرباً من المخاطرة، هو أيضاً الجواب الممكن على الطبيعة العابرة المؤقتة للكائن.

Twitter: @alqareah

الفصل السادس

لقاءات في دروب آسيوية

الحياة مغامرة يومية وهي اكتشافٌ
كل لحظة. كل فرد موصول بوعيه
الروحي الخاص.

بوذا شاكياموني

بوذا المتعدد مجسَّداً بصور وتماثيل، ظل ساهراً ببسالة، يرقب عبر عصور مواكب الرجال تمر أمامه، تجاراً وحجيجاً، رهباناً وكهنة، أشراراً وجنوداً. وعلى المفترقات كان يشهد على آمال تتبدد وطرقات تختفي في الرمال. لا الزمن ولا التقلبات المناخية نالت من عظمته الحليمة ولا من حضوره الهادئ. كثيرون من أعداء التراث ومحطمي التماثيل والأيقونات أرادوا أن يخفوا آثاره من الوجود، لكن هؤلاء البؤساء، بجهلهم العقيم، لم يعرفوا أنهم، بنسفهم هذه الأدلة الشاهدة بصمت على معرفة قديمة، إنما يؤكدون، ببساطة على المبدأ التأسيسي فيها، اللاديمومة: «ما من مادة لا تقبل التغيير، جامدة لا تولد ولا تموت». هذا الكلام لبوذا.

في أودية منسية في جبال هملايا على مداخل الغابات الاستوائية، تماثيل أخرى محفورة ورسوم منقوشة ولوحات

Twitter: @alqareah

جدارية على صخور المغاور أو صخور الضفاف في مجاري الأنهار الجافة أو الجارية، كلها ما برحت تشهد على أن الرسالة ما زالت ماثلة في العيون وراسخة في قلوب البشر. من الطين والغرانيت والحجارة الكريمة والخشب الصلب وخشب الطيب، من المعادن النادرة أو الشائعة، تماثيل كبيرة، عملاقة، متوسطة، صغيرة، منمنمة معلقة على صخرة، ومكررة ألف مرة ومرة على جدران مغارة، وحيدة في معتزلها على جانب الطريق أو في جوف شجرة أو تحت المعطف المسدس للأفعى ـ الملك، متوهجة في المذابح والهياكل، أو مطلية بمواد من صنع الريح، مسطحة على قطعة قماش أو ناتئة على تميمة أو حجاب، متجهمة حيناً أو مفترَّة الثغر عن ابتسامة، تلك هي حالات بوذا وأشكاله في كل البلاد، المشترك فيها هو أنها تعكس طبيعة من صنعوها على مر العصور، وتُجمع على تقديم صورة للذين يرونها تنضح بالطيبة والجمال.

إن بوذا، تمثالاً أو متأملاً، يصحب بحضوره المتنبّه أولئك القادمين ليضعوا أمام قدميه أثقال متاعبهم اليومية وتمردهم الغريزي على ضربات القدر ولحظات فرحهم الثمينة. إن سيرة بوذا المتكيفة مع مراحل رحلته الطويلة، من مسقط رأسه في ماغادا «Magadha» الهندية مروراً بأصقاع الصين وأعالي جبال هملايا وسهول آسيا الوسطى الشاسعة وصولاً إلى الجزر اليابانية، قد تلونت بألوان الأماكن التي مر بها، ودخلت في حياة الناس وصارت جزءاً من عاداتهم وتقاليدهم. وتقول الرواية الأسطورية عن بوذا، إنه كان يعرف، لأنه كلي العلم، آلام البشرية ومآسيها، ماضيها ومصيرها، وأن معرفته هذه منحته الحكمة في تخفيف الآلام. وما استمراره حاضراً على هذه الصورة رغم تقلبات الزمن وعلى مرّ العصور إلا لأن ابتسامته هي التي ربما

Twitter: @alqareah

تكون قد حفظت فضيلة بلسمة الجراح وإعادة السلام إلى القلوب.

أكثر ما يُدهش اليوم على دروب البوذية هو، بالتأكيد، تنوع اللقاءات وصفاء المسار. ففي المغاور الهندية القديمة وفي حقول برمانية أو تايلاند وفي الأودية النائية داخل الصين وڤيتنام، وفي خراب الصوامع التيبتية، وفي معابد سريلانكا وكوريا واليابان لا تزال هذه الشعلة الصغيرة تتلألأ في جوف الأكواب ورائحة البخور المدوخة تتصاعد في الهواء، ومازال نساك وإخوة في الرهبنة يجتمعون.

I. على خطى الحكيم

البقعة الجغرافية كانت محصورة نسبياً في تلك الأراضي التي ذرعتها قدما الأمير بحثاً عن اليقظة (النباهة) وجابها الحكيم ليوزع ما اكتسبه من معرفة. على صعيد الهند الحالية بدأت الرحلة من لامبيني «Lumbini»، مسقط رأسه في النيبال حتى كاشيناغارا «Kushinagara» موقع رحيله الوحيد. طفولته ومراهقته وزواجه في كابيلاڤاستو «Kapilavastu»، عاصمة المقاطعة، بعدها سنوات التنسك والبحث الروحي، أما اليقظة (النباهة) فكانت في بودغايا «Bodh Gaya» بالقرب من باتاليبوترا «Patalipûtra». وفي سارناث «Sarnath» بالقرب من كاشي «Kashi» انطلقت شرارة أول خطاب في حديقة الغزلان. بعد ذلك حدَّد الرجل خياراته ومضى في حياة الرهبنة النقّالة؛ نادرون هم البشر الذين أضرموا شعلة دام حريقها طويلاً وبلغ إشعاعها مسافات بعيدة.

زالت مملكة ماغادا «Magadha» من الوجود، مثل كثير غيرها في التاريخ، وحل محلها اليوم بيهار، وهو مشتق من ڤيهارا «Vihâra»، أو الصومعة البوذية، وفيها ذاكرة تلك البدايات. غير أن

Twitter: @alqareah

الرسالة استمرت وانتشرت وتشعبت حتى تخوم الأراضي الآسيوية تاركة أثرها، حتى يومنا هذا، على طريقة العيش في كل العالم.

من الطبيعي أن تكون البقايا الأثرية الأكثر قدماً المتعلقة بالبوذية أولاً وببوذا، موجودة في الهند. تعود أول الكهوف الريفية في زمن أشوكا في بيهار وكهوف باجا «Bhaja» وكونديفت «Kondivte» بالقرب من بومباي أي من طرق التجارة إلى قرن من الزمن تقريباً قبل الميلاد. في تلك المرحلة كان تجسيد بوذا الغائب كناية عن جذع شجرة فارغ أو شجرة أو زهرة لوتس lotus أو تمثال. كانت ركائز أشوكا منصوبة في وسع البنغال وأفغانستان وفي جنوب شبه الجزيرة الهندية. مع ظهور أقدم التماثيل، بالمعنى الدقيق، برز تياران في المرحلة الكاشانية (القرنان الأول والثاني بعد الميلاد)، الأول، يتحدر من الفن الهندي حول ماثورا «Mathura» بالقرب من آغرا؛ والثاني، يحمل ملامح تأثير إغريقي روماني في غاندارا «Gandhâra». ومع أنهما يعودان إلى المرحلة الزمنية ذاتها ويمثلان الموضوع نفسه إلا أن الاختلاف بينهما كان ملحوظاً. وبمقدار ما كانت الرسوم الهندية تنتسب إلى سلالة التصوير اليوغي (من يوغا) في لحظة الصفاء التأملية التي كان يتميّز بها شيڤا (Shiva) على وجه التحديد، بمقدار ما كان الزي الروماني يشبه ثوب القضاة الفضفاض على التماثيل، حتى لو كان شكل التعبير يسمح أحياناً بتجاوز الفارق الظاهري بين الفكرة وترجمتها على المنحوتة.

إن تمثال أماراڤاتي (Amaravati) في أندرا براديش «Andra Pradesh» يحاكي تلك الموجودة في بارهوت «Bharhut» وسانشي «Sanchi» في قلب شبه الجزيرة الهندية، بينما تنهض بين هذين الموقعين الأساسيين كهوف أجانتا «Ajanta» وإللورا

Twitter: @alqareah

«Ellora»، وهي شواهد ساحرة على عبقرية مبدعيها وورعهم. إن حدساً فنياً هو الذي مكّنهم من إبراز قيمة التفاوت الكبير بين الحضور غير المفتعل «للنبيه» وبين أتباعه، بمهارة جليَّة في المنحوتات والرسوم، تبدو واضحة عليها قوة الحكيم ورباطة جأشه. وقد وصل صدى هذه الإنجازات الكبيرة وتأثيرها حتى آخر حدود هذه المنطقة التي تعتبر بؤرة الإشعاع البوذي الأولى. وقد كان للصدف وحدها، خلال رحلة لصيد النمور في هضاب ساهيادري «Sahyadri»، على بعد مئة كيلومتر من أورانغاباد «Aurangabad»، الفضل في اكتشاف تحف فنية منسية في معابد غطتها النباتات الاستوائية الغزيرة. كان ذلك على يد ضابط إنكليزي اكتشفها بكثير من الذهول.

II. مواقع وأماكن

اكتشاف مذهل غير متوقع، ثم صار مألوفاً بكل الدفء والحرارة، هو معبد شوي داغون (Shwe Dagon) الكبير في «Rangoun»، الفريد في تلألؤ الذهب، بالرغم من حشر أثر فني رديء ذي حلة حديثة بين مبانيه المتعددة. تمجيداً لهذا الراقد، وعلى إيقاع النار، يجتمع المؤمنون في موعدهم اليومي مع صلواتهم ونذورهم يُقدمون على أقدام تماثيل بوذا، بوذا المتعدد، وهو وقت الطواف بأقدام حافية على رخام حار تبرِّده دلاء من الماء يرشها حراس ونساك. آلاف المصابيح المضاءة. بالقرب من طريق الطواف رجال ونساء يقفون متلاصقي الأرداف أو يتربعون على الأرض بعيون نصف مغلقة يحبحبون خرزات كبيرة في مسبحة خشبية. في تلك الساعة الليلكية والزرقاء يعزل كل واحد نفسه ليتأمل بصورة أفضل، من دون أن يزعج أحد هرّاً ثابتاً في مكانه على ركبة أحد التماثيل. رهبان بوذيون في وضع التأمل،

Twitter: @alqareah

تمر أمام أنظارهم أرتال من البشر في طواف الزِّيَّاح، ورهبان آخرون بلباسهم الزهري المشمشي، وبشمسياتهم المطوية يمارسون طقوس التقوى.

أشرطة مزخرفة بالأجراس تتناغم بطنطناتها مع هبّة أية نسمة، وعطر الياسمين والبخور يؤشر على قوة اللحظة العابرة، وفي متاهات الكلام، حيث يبدو بوذا حاضراً في كل مكان يبدو الناس في جيئة وذهاب وجلوس وقيام ودعاء وضحك، ينظرون أو يتأملون أو يثرثرون أو ينتظرون أو يحلمون أيضاً. وبصورة مفارقة يحرس الجنود المسلحون الأروقة الأربعة الهائلة الفخمة، لكن وجودهم يبدو غير ضروري خاصة حين تتعذر رؤيتهم على أنظار المؤمنين. في مثل هذا المشهد يتعذر على المرء أن يحدد موعداً في شوي داغون «Shwe Dagon» لحظة يتدفق العائدون نحو هذا المكان الحفي بصفائه.

جمال يقطع نسيم معابد أنكور «Angkor» ويتدفق عند الشفق المشع على مهابتها الملكية على منعطف الطريق المتماوجة الهادئة، وضحكات الخمير على وجوه يبدو عليها التأثر، وجوه جمهور يهرع إلى احتفال جنائزي فرح في سييم ريب «Siem Reap»، حيث يختلط المهرِّجون بمحركي الدمى بالراقصين وأكلة النار وبائعي الحساء حول فناء مأتمي عالٍ على شكل تنين مجنح يحرسه رهبان لا ينتبهون إلى الضوضاء. واحد من كمبوديا سعيد بما هو منهمك فيه قبل هول الخمير Khmers الحمر المتورطين في حرب العصابات داخل عتمة الغابات الوحشية التي تتردد فيها أصداء أحلام مجهضة. بعد سنوات من هذا الكابوس كانت لا تزال الجراح حية في الأجساد وفي الأرواح. حتى التماثيل المهشمة لا تنسى رغم بسمة على وجوهها لا تنقطع.

صفاء في بايون «Bayon»، على بُعد مئات الأمتار من أنكور

Twitter: @alqareah

وات «Angkor Wat»، اجتاز المعبد البوذي العصور وظل صورة للجمال المبتسم ممتحناً جنون البشر. وظل بايون رغم تعاقب الأيام، ورغم ما يظهر عليه من دمار وخراب، ورغم ما فيه من بعض التماثيل المقوّضة ودرج منهار ورصاصات أطلقت على التماثيل لفقء عيونها، ظل محافظاً على روعة غريبة في لحظة ظلت عودتها مؤجلة زمناً طويلاً.

خزانة الصمت تليق بهذا الشاهد الأخرس على خلود الإنسان. مع ذلك فالحجر ينطق، وهو يروي، لمن يحسن الاستماع، تاريخ ديانة وسفراً نحو النور وسعياً دؤوباً من قِبل الكائن بحثاً عن نفسه. كيف يصير الحجر دعاء وكيف يستحيل الدعاء حجراً؟ ما بعد الأزمنة والأمكنة ظل بايون في كمبوديا وبوروبودور «Borobodur» في جاڤا يتبادلان أصداء إنسانية باسمة تورث ماضياً غابراً إلى الأجيال القادمة: إنها طريقة متشابكة في التعبير عن الفضائل الأساسية الأربع وهي اللاعنف، الرحمة، الحكمة، التجرد، أو في القول إن اليقظة أو التنوُّر أو بالأحرى المعرفة، تكمن في اكتشاف الخيار الذي تنعم به الحرية في تمامها.

في سهل كيدو «Kedu» في جاڤا ما زال معبد بوروبودور يثير الدهشة. آثار ديانة وروحانيات سبقت نوتردام «Notre-Dame» بقرنين وشارتر «Chartres» بثلاثة قرون. قبل إعادة التأهيل الدقيقة التي استرجع فيها جزءاً من روعته، كان عبارة عن كتلة غاطسة في عالم من الألوان، فيها تماثيل أسقمها إهمال البشر وغفلة الزمن. وقد أعيد اكتشاف هذا الزهري من زخرف الفن البوذي، مثل أجانتا «Ajanta»، عام 1814، بعد سنين من الإهمال والنسيان وغزو إسلامي بلا رحمة شمل الجزر الأساسية في السِنْد «Sonde». تمّ اكتشافه على يد ستاندفورد رافلز (Standford

Twitter: @alqareah

Raffles)، حاكم جاقا لوقت قصير، ثم طواه النسيان إلى أن تنبه حراس التراث الثقافي العالمي أخيراً إلى ضرورة المحافظة عليه.

بعد الانتهاء من تدعيم المعبد وإدراجه رسمياً في الشبكة السياحية، احتفظ بشيء من سحره القديم، قبل المتحف الذي فرض عليه دوام العمل وتجار الهيكل. وفي عذوبة الفجر المتلعثم يخيم عليه جو جميل يليه سعير الهاجرة ولحظات محرقة من الشفق المبكر. أحياناً في ضوء البدر المشع يعود رهبان ومؤمنون ليرفعوا الدعوات على درجات المعبد، وتغدو تلك الليالي المنيرة أرحاماً للأحلام كما لو أنها تريد أن تشاطرهم، ولو للحظة، سهرة طويلة مع «الأمراء الأسرى»، أي مع تماثيل بوذا المحصورة داخل أنصابها على المصاطب المستديرة، في منتصف الطريق بين مربع الحياة اليومية والتجويف الكروي لآثار القديسين المركزي، على القمة، حيث كان يوجد، على ما يقال، رسم أولي غير مكتمل لصورة الحكيم.

III. أقاصي آسيا

على تخوم آسيا تقع شبه الجزيرة الكورية التي تسمّى أحياناً بِـ «سر آسيا المحفوظ جيداً»، وقد وضعت هي الأخرى تحت جناح حكيم شاكيا. مسيرة الصدفة الطويلة على طرق الحرير عبر أصقاع الصين ومنغوليا انتهت بالكهف المدهش في سوكورام Sokkuram. على المنحدر عبر الغابة يلوح الخط الأزرق في المحيط الهادي، وفي الظل الناعم يرتفع تمثال ضخم من الغرانيت الأبيض مجسداً لحظة «النبيه». نظراته موجّهة صوب الشرق، وحركة معهودة سنيَّة تجعل الأرض شاهداً، وجسم في وضع لا تشوبه شائبة ويمنح حضوراً خاصاً لهذه التحفة الفنية العائدة إلى القرن السابع. هل يحتاج الأمر إلى الإيمان لكي يوضع

Twitter: @alqareah

في المنحوتة وبهذه المهارة هذا الهدوء القادم من أعماق العصور، ولكي يراقب الاهتياج البشري والتباهي بكل هذا الغليان.

على الجهة الأخرى من بحر اليابان ليس بمستطاع شيء أن يفسد الخلود في حدائق كيوتو Kyoto. وحده النسيم يتحرك هنا على هواه ليرن الأجراس على أشرطة الزينة ويمايل غياض الخيزران، والصمت الخفيف ينظم دخول الأرتال بهدوء في فسحة مجمدة، لكن حية، من الزمان والمكان، ثم خروجها منشطة بعد أن تخطف لحظة فريدة كلحظة سقوط الورقة. في مدينة نارا Nara المجاورة تذكِّر حديقة الأيائل بمثيلتها حديقة الغزلان في سارناث «Sarnath» في الهند وتحيل إلى الحدث ذاته، حيث دارت دورة الديانة لأول مرة وألقى فيها «النبيه» أول خطاب له بعد اليقظة (النباهة). ظباء وغزلان سمر في ملء الحرية وفي أُلفة نموذجية مع الزائرين، إنها حيوانات الغابة التي تعودت ألا تخاف من المارة، بل حتى أن ترافقهم وهي تنطُّ في المسالك الظليلة. حين تكيفت الديانة الجديدة مع روح المكان اتخذت وجوهاً شتى، وهذا هو بالضبط ما جعلها تترسخ عميقاً في مختلف المقاربات وتستمر رغم كل الهياج المتلاحق في تاريخ البشر.

القارّة الآسيوية كان لها أيضاً ما يكدِّرها. ففي قلب منحدر فوبو «Fu-bo» في كوي لين «Kouei-lin» على نهر لي «Li» في الصين الجنوبية قامت شبكة كهوف استُخدمت في الزمن الغابر مسكناً للرهبان البوذيين، الذين كانوا، جرياً على العادة، ينقشون على جدران الغرف المحفورة في الطبيعة مشاهد لا تحصى وطُرفاً عن حياة «النبيه»، وكأن القصد من ذلك إسناد طقوسهم اليومية. وحدها الكهوف المموهة المخبأة أو تلك المعلقة في أمكنة عالية نجت بقليل من الخسائر من فورة الجيش الأحمر. في مدينة الرسامين والشعراء والنساك، في حقل قصب السكر والصخور

Twitter: @alqareah

العائمة بأشكالها الغريبة حيث ما زال يجري صيد السمك بطيور الغاقة، وتخوض جماعات منظمة من المراهقين معارك بالمصفحات والبنادق، بعناد بليد من قِبل أولئك الذين يجرون خبط عشواء وراء شعارات جاهزة مزينة ببهارج إيديولوجية. في المرحلة ذاتها كان برابرة جدد آخرون يفقأون جهاراً عيون التماثيل ويشوهون الجداريات الرهبنية. التماثيل، هي الأخرى، قد تموت، لكن البصمات التي ما زالت محفورة تدل على حضور الغائب، إنه فراغ، ظرف فيه كل الممكنات بانتظار إقلاع جديد.

IV. مزارات

على بُعد مئات الأمتار من الهند كانت جزيرة سيلان (سريلانكا اليوم) إحدى أول مراسي العقيدة البوذية. وقت كان بيريكليس (Périclès) يشيّد بارثينون «Parthénon»، بنت العاصمة القديمة أنورادابورا «Anuradhapura» «الدير الكبير» ماهاڤيهارا «Mahavihara»، هبة من الملك للراهب ماهيندا (Mahinda) عربون امتنان على هدايته إياه إلى الدين الجديد. وبقيت غال ڤيهار «Gale Vihare»، بالقرب من العاصمة الملكية الثانية، مكاناً مميّزاً يضم ثلاثة تماثيل، اثنان يثيران الإعجاب لبوذا في وضع التأمل وآخر له مُمدداً لحظة رحيله الأخير، وبينهما تمثال لأقرب تلامذته واقفاً ينظر من بعيد. تتصاعد من هذه التماثيل قوة نادرة تشهد على خلود لم تكذبه الأيام. واليوم تبقى الجماعة البوذية في سريلانكا الحارس الأمين على تعاليم من يوصفون بالقدامى، وهي مجموعة في تريبيتاكا «Tripîtaka» أو السلال الثلاث.

ربما يكون بوذا سارناث «Sarnath» الشهير في القرن الخامس يمثل من خلال التمثال المنحوت المفصلة أو التوليفة الأكثر اكتمالاً بين التيارين الكبيرين المعروفين في المدارس

Twitter: @alqareah

البوذية: تيراڤادا وماهايانا، أو المركبة الصغرى والمركبة الكبرى. القاعدة المتقنة وصفاء الوجه وأناقة حركة التدريس ومدى النظرة والروحانية المجسَّدة تتضافر كلها لتجعل من التحفة عملاً لا مثيل له في عصر غوبتا «Gupta». وبعد، أليس من الأصول بدأ شاكيامونى (Shâkyamuni) يدير عجلة الشريعة؟ منذ أن بدأت العودة إلى الينابيع تنطلق في منتصف القرن العشرين على تخوم ڤاراناسي «Varanasi»، صارت الأماكن البوذية تُرتاد من قِبل أتباع الديانة بكل رهبانياتها، وكانت تُعرف الفروق بينها من لون الثياب. ومع سكينة المساء يخيم حول التمثال حضور قوي غير مرئي، حيث يبدو كأن دورة الطواف تنقطع لتصير في لحظة محوراً ثابتاً لزمن يتجه إلى الخلود، إلى اكتمال الكائن.

تجدد تقليد زيارات الحج كما لو أنها لم تنقطع أبداً. بالتأكيد كان يوجد على الدوام حجاج على طرق البوذية موجودون في كل الأصقاع تقريباً، ويعملون بشفاعتها وتحت رعايتها، لكن مواقع محددة كانت تجذب الجمهور. هذه المواقع التي صارت مقدسة بقوة التاريخ أو بقوة الأسطورة، جعلها المؤمنون محجة يأتون إليها من أماكن بعيدة ومن مشارب متنوعة إمًّا لمراكمة الفضائل أملاً بتقمص أفضل، وإمًّا لتقديم الامتنان والشكر على نعمة أغدقت أو أمل تحقق، أو يأتون للتثقف وتصليب الممارسة. وهي كانت في نظر الجميع مناسبة لتجمّع المتباعدين وللقاء الغائبين، ومحطة استراحة من عناء الحياة اليومية الصعبة غالباً، ولحظة قصيرة في المقامات المقدسة يقضيها المسافر قبل أن يستأنف الرحلة، مشفوعاً بإيمان يساعده على العيش. هذا التجمع المختلط ينظم عجلة الزمن ويشكل محطات في حياة تحتاج اللقاءات فيها أحياناً إلى أن تسجِّل مواعيدها على حجارة بيضاء.

Twitter: @alqareah

٧. رجال

يكفي وجود شخصية قوية أحياناً لإنعاش التقاليد، حتى في أيامنا وكأن شيئاً لم يكن، ولبعث عقيدة قديمة وترسيخ عادة من العادات. هذا ما أخذ مني كل عمري، على ما قاله راهب سيامي تايلاندي عريض المنكبين، حين جسد المثل في «غابة سلطة التحرير». ففي شبابه كان يبحث لدى معلميه وفي الكتب عن طريق شقه بنفسه ولنفسه. بعد ذلك تبعه آخرون إلى حيث أمكنهم أن يتابعوه، متجاوزين السجالات والمماحكات والمفارقات. لقد أمضى سنوات في الدراسة والقراءة والترجمة والتفكير والتأمل، في الغابة التي اختارها لنفسه عام 1932، أو التي اختارته! انتصر في معاركه الخاصة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، وظل، حتى نهاية الدرب (1993) يُعتبر أستاذاً في التأمل معروفاً في زمانه، يوم كان المجتمع المبلبل ينزلق في منحدر المال والاستهلاك. بالنسبة لبوداداسا Buddhadâsa «ممارسة الدين وتطبيق الشريعة بحذافيرها من شأنهما إنقاذ المرء من الوقوع في فخ اليأس». حين أضاء «خادم بوذا» هذه الشعلة الصغيرة في قلب سوان موك Suan Mokkh، داخل معتزله الحرشي، ترك إرثاً غنياً استنجد به وتثقف عليه تلامذته المقربون.

برمانية Birmanie التي اشتهرت بمزايا معلّميها وتدريسهم وبمهابة «تمثالها» قبل الإصلاحات الحمقاء الناجمة عن حماقة العسكريين، عرفت، هي الأخرى كيف تحافظ على تراثها الذي يطبع الحياة اليومية بطابعه ويخفف من وطأة الأيام. ولم تكن المعتقدات الشعبية والخرافات في منأى عن التأثير على ممارسة الطقوس البوذية، بل طبعتها بطابعها أحياناً، لكن بوذا ظل محاطاً، مع أفضل ممثليه في المناسبات الحديثة، باحترام شديد. ذلك كان وضع راهب تمانيا «Thamanya»، رئيس دير في الجبل مشيّد على

Twitter: @alqareah

رأس هضبة كلسية بالقرب من عاصمة الدولة كارن «Karen». حوله كانت مجموعة صغيرة تعيش متفاوتة قليلاً عما في سائر البلاد، كما لو أن حضوره وحده يكفي لتأمين الحماية والانسجام بعيداً عن الجميع. لم تترك الإشاعة الشعبية مجالاً للشك، ومفادها أن من يقصد ذلك المكان فمن أجل طلب النصح من الراهب الكهل أو لنيل بركته، ولكن أيضاً للتلذذ بالأطعمة النباتية التي تقدم بوفرة على طاولة مفتوحة للجميع تبعاً للعادة المتَّبعة في الدير. ولا يثير العجب أبداً أن يعزو المؤمنون إلى مضيفهم قدرات سحرية، بعد أن عمَّت شهرته البلاد حكمة وتسامحاً. وقد ترك غيابه عام 2003 أثراً بالغاً، إلا أن ذكراه المنيرة ظلت حية.

ظل هذا الورع حياً رغم الضغوط الرسمية على هضاب هملايا، حيث كان أهل التيبت يناضلون على مهل ومن غير عنف حفاظاً على حضارتهم التي يهددها غزو الحضارة الصينية. نصف قرن من الاحتلال لم يذوقوا فيه طعم الحرية ولا الأمل في أن يستعيدوا يوماً ما، على هواهم، حقهم في أن يختاروا السير أو عدم السير على طريق الديانة البوذية. في جماعات المنفى تمَّ تجميع التراث بدقة، وحفظ ونقل مع الشروح والتعليقات، مع إفساح المجال أمام إمكانات جديدة لنشر فكر حكيم شاكيا بالاعتماد على تقنيات الاتصال الحديثة.

لم يمنع ذلك من أن يكون الحضور مع دالاي لاما أو مشاركته دروسه السخية، لا سيما في الهواء الطلق أمام جمهور آسيوي في غالبيته، بمثابة تجربة فريدة. شعور غريب يعتري المرء حين يجد نفسه في مكان مقدس خارج الزمن، موصولاً بجسور غير مرئية إلى طقوس قديمة متحدرة من سقف الكون، لكن مشدودة بقوة إلى اللحظة الراهنة. جمهور تخيِّم عليه البسمة والوداعة، خليط يجتمع على الأبواق والطبول، ومعها صوت الناي

Twitter: @alqareah

الخافت الذي يغطي عليه ضرب الصنوج، بانتظار الاستماع إلى كلام يعجز معظم الحاضرين عن فهم معناه العميق. لكن، وإن يكن، فالحماس الجماعي هو المهم، ولا شيء يميِّز أحداً عن أحد حين تنطلق لازمة الكلام ولازمة الصلاة وتعلو وتيرتها وتهدر وتستفيض وتنجدل وتمتد كما لو أنها ستجرف بموجتها التطهيرية كل آلام اللحظة.

حول المعبد المقدس تُجمع الذرَّات الملونة بدقة متناهية، حبة حبة، بتوازنات دقيقة بين العناصر والألوان والرموز، وتُنسج كأنها شرنقة تحمي وتغلِّف عائلة كبيرة جداً ينتشر أفرادها ويمتدون بعيداً. إنها تحفة فنية بالغة الدقة والتفاصيل، جميلة بمقدار ما هي عابرة. فما أن تنتهي المُسارَّة حتى يزول الرسم التخطيطي، والرمل المجتمع في مرمدة يُرمى في مياه النهر. إنه برهان عملي، بعيداً عن الكلمات والنظرة الشاردة، على لاديمومة الأشياء، وهو خلاصة قاطعة لقانون القلّز «la loi d'airain» الذي يحكم العالم: غبار نجمة أو غبار ضوء أو غبار رمل، وما علينا نحن إلا أن نمضي. كم درب أو طريق لكي نقرأ بين السطور عربسة السؤال، حين يتحول الزمن، خلال بضعة أيام، إلى فتحة على المكان، نحو عتبة علينا تخطيها، والبقاء، في لحظة الانتظار، منتبهين إلى الآخر، حتى لا نعمى عن إشارات تحدد عناصر جواب لن نجده إلا داخل أنفسنا.

Twitter: @alqareah

القسم الثالث

❖

الفصل السابع

غرابة أم حداثة؟

إن أرادت البشرية أن تتجدد وأن تنجو
من الدمار، ستكون بحاجة
إلى علاج طويل بالبوذية.

أوكتافيو باز

بدت البوذية أحياناً، خلال ترحالها على أرض البشر، متناقضة ظاهرياً. كان «النبيه» في منطق الأمور مصدر إلهام لعدد من الأعمال والتحف الفنية التي وُضعت تكريماً له. لكن ما هو أكثر إثارة للدهشة، لأول وهلة، اعتماد منهجه الأخلاقي قانون شرف لدى الساموراي اليابانيين المعجبين بصرامة الفكر القائم على التحكم في الجسد وفي الحواس. إذا لم تكن الروح الحربية، بمعنى الانخراط في الحرب، من صميم العقيدة البوذية لكن بصماتها في الزهد والانضباط ظهرت بصورة واضحة في الأديرة البعيدة في الشرق الأقصى، إذ إنَّ المحارب هو أيضاً ذاك الذي يقاتل ضد نقائصه وميوله حتى لا تتبدد حياته في ما لا جدوى منه. هذه الخصائص المميزة هي التي جعلت الغربيين الأوائل

Twitter: @alqareah

يهتمون بها مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وقت كان يذوي الإيمان وتنهار اليقينيات، لكن في أفق يتسع بفعل الرغبة القوي في حب الاطلاع.

ربما تكمن قوة البوذية في قدرتها على مقاومة الضغوط وعلى تجديد نهوضها؛ فبعد أن اختفت من الهند، بلد المنشأ، حيث اعتبرت هرطقة من الهرطقات وحوربت من البراهمانيين أمكن لها أن تتسلل وتتسرب إلى رحمها الأصلي، واستمرت حية في بلاد غريبة وغير متوقعة، مسترخية حيناً ونشيطة حيناً آخر، يساعدها على الانتشار قدرتها على التكيف. فهي غزت شعوباً شَغِبة كشعوب التيبت وبعدهم المغول الذين «أقلموا» الشريعة على طريقتهم. هل يعني ذلك أن سبر غور الحقيقة على الطريقة البوذية أمر يتلاءم مع أي منهج في قراءة العالم؟ إن الميل إلى التلفيقية التبسيطية أيسر من أن يحاط بالشكوك.

في زمن النوايا التوحيدية الحميدة الساعية إلى تأمين أفضل شروط التفاهم بين أكثر التيارات الروحية تنوعاً، تبدو الديانات التوحيدية في الحقيقة هي المعنّية بالدرجة الأولى. إن ولوج مقاربة للحياة خارج إطار حقيقة وحيدة أو إله خالق هو أيسر في تحديد موقع المرء وهويته قياساً بالأفكار المكتسبة، وأسهل في معرفة مسؤوليته داخل المغامرة البشرية. إن إعادة اكتشاف البوذية، أو إعادة تقويمها في إطار المجتمع الراهن المعلوم والغارق في الخصومات ربما يؤكد على وعي بطيء بضيق، إن لم نقل بمرض، كان بوذا التاريخي قد شخّص أعراضه. فهو حين أكد أن مصدر العدوانية، بالتالي الحقد، على النفس أو على الآخرين، يكمن في الرغبة الأنانية، رغبة السلطة والتملك والسيطرة، كان يشير إلى نقطة الضعف؛ وهو وصف الدواء لكنه ليس قادراً على أن يحل محل أحد وأن يأخذه بدلاً منه. وبعد تعاقب «حضارات»

Twitter: @alqareah

أتت وأخرى مضت، يبدو هذا التفكير كأنه الدواء الشافي.

إن البوذية، باعتبارها طريقاً إلى المعرفة والتأمل والأخلاق، وفّرت مجالات للاكتشاف على عدد المقاربات. يقول سادة الحياة إن ضبط النفس يؤدي، في عالم الظاهرات التي لا تعرف موجاتها بداية ولا نهاية، إلى أن يصير السيد على الحياة سيداً على الموت، وإذا كان هناك من خلاص، فهو يعني تحويل النفس ودفعها بالطريقة الملائمة للتحرر من النوازع الخاطئة وربطها بدورة الانبعاثات. إن تركيز التفكير يعني تثبيت الانتباه على نقطة أو شيء أو صورة. تتوطد بداية الاستبطان هذه عبر التجارب ومع مرور الزمن إلى أن تصير عادةً وتصبح طبيعة ثانية، كما أن كبح الأفكار التائهة ثم توقيفها يؤمن واحة من الهدوء، ثم يأتي بعدها الصفاء. وما أن يترسخ هذا الأساس حتى تنفتح الأبواب على التأمل وتلاوة الكلام البوذي المقدس *(Mantra)* وتهدئة الحواس ودراسة النصوص والانطلاقات الأكثر جرأة.

I. تجربة متفردة

المغامرة حتى لو كانت موجهة ومحفَّزة ومدعومة، هي كالتجربة، تبقى متفردة. نتائجها فحسب قد تكون مشتركة. لا شك أن الجهد متطلب لكن الهدف المنشود ذو قيمة كبيرة. في زمن ينزع حوار الثقافات إلى اتهامات واتهامات مضادة ومهاترات وإلى صنوف اللعنات والتحريم، هل من مجال لمثل هذا التفرد؟ مع ذلك فإن غاندي (Gandhi) كان قد رأى أن الخضوع لمثل هذه الظروف سيجعل العالم أعمى...

منذ أن أخذت البوذية، خلال العقود الأخيرة، تشدّ أنظار الرأي العام الغربي المحيّر ثم المهتم، قدمت له إجابات جزئية على

Twitter: @alqareah

بعض التساؤلات. كما لو أن الزمن توقف للتو لحظة لكي يعاود فهم العالم وسبر غوره بطريقة مختلفة، تاركاً للعلماء، للباحثين عن المطلق، ولطلاب النرفانا الخاطفة، ذرع الخطى في أراضي النظريات الفلسفية الشاسعة وفي مثالية الفراغ المطلق الذي ليس هو العدم، لتعلم وإعادة تعلم الوجود في الحاضر. الحضور في الحاضر هو مراهنة أو مخاطرة.

صار الوضوح الفكري يتطلب كثيراً من الصبر والفضول لاستخراج جوهر العقيدة التي تعج بالتأويلات، أخذاً بالاعتبار أيضاً النظرة التاريخية إلى الظروف وإلى التقاليد المحلية؛ فقراءة الشريعة البوذية ***«Dharma»*** لا تتم بالطريقة ذاتها إذا كان المرء هندياً أو صينياً أو من بلاد التيبت أو سيامياً أو كمبودياً أو من برمانية أو يابانياً، أو كورياً، أو سيلانياً، أو فرنسياً، إنكليزياً، إيطالياً، إسبانياً، ألمانياً، أميركياً أو مكسيكياً. والصدى ليس واحداً لدى الشرقي والغربي، مع أن أقلية صغيرة تخضع للتفاعل بفضل الانفتاح والتسامح واختلاف المعالم التي تشيِّد عليها العادات واليقينيّات.

إنَّ ما هو أكثر إثارةً للانتباه الآن هو الجانب العقلاني من العقيدة البوذية وحداثة الحالة مجردة من الزخارف والمحسنات. تبدو عملية الرصد والملاحظة، مثل كثير من البديهيات، شديدة البساطة. إلا أن البساطة لا تعني التبسيط؛ وفي مواجهة هذا التحدي مباشرةً نبذل الجهد اللازم لرفعه. ويطرح التساؤل حول أسباب مثل هذا النجاح. فهو لا يُعزى فحسب إلى تعطش مزعوم لشيء غريب أو جديد كان قد دفع نحو المغامرة مئات الطامحين إلى شيء آخر بعيد بمقدار ما هو في متناول اليد. هذه الجاذبية باتجاه كلام يشبه كلام النبيّة في معبد دلف Delphes تدل بطريقتها على تضييع البوصلة وعلى الانفكاك عن ديانات قائمة،

Twitter: @alqareah

في حين يسمح نمط المعرفة القادم من الشرق، على ما يبدو، بالإحاطة بصورة أفضل بترابط التحولات القائمة في العالم المعاصر.

مع ذلك، فلا مفر من الزمن ولا مهرب من الشرط الأولي الذي يمليه العالم الصغير الذي يجري، انطلاقاً منه، إدراك العالم الكبير، أو على الأقل تخمين قيمته. والذين يدخلون في مغامرته يكسبون منه، على الأغلب، النضج والوضوح. يعني ذلك أيضاً أن العقيدة البوذية، بعد ألفين وخمسمئة عام، ومعها «يقظتها»، تتطلب دوماً مقاربة خاصة، وخلاصتها أنه ربما يكون الأفضل، إزاء العذابات اليومية الملازمة لكل وجود بشري، أو من الأكثر جدوى، الابتعاد قليلاً والتساؤل والبحث عن جواب داخل الذات، بدل الاكتفاء بالنحيب والشكوى والتأسف وتحميل الآخر مسؤولية الخطأ غريزياً. ذلك أفضل حتى لو كان يصعب تعلم هذا السلوك. فمراقبة العالم ورصده والتكيف معه والنظر إليه بصورة مختلفة، كل ذلك يحتاج إلى وقت، وليس من الممكن تقويم التجربة أو المسار إلا في نهايتهما. فكلاهما متلازمان ومتفردان.

II. قابلية الكمال البشري

إن البوذية، على غرار الديانات الكبرى التي تعبِّر كل منها على طريقتها عن نظرة إلى العالم، تشدد ضمناً على الكمال البشري الذي يستند إلى تحمل المسؤولية. والبوذية لا تنكر وجود المشاعر والعواطف والانفعالات، بل هي تدرجها في صيرورة وتقترح وسائل للسيطرة عليها، ودفعها إلى التسامي، والتخلص بلباقة من الوهم الذي يتجدد من غير انقطاع. إن دورها الحضاري يكمن، في جانب كبير منه، في تعليم احترام الحياة، كل حياة، وهي فكرة قائمة على الترابط بين تعبيرات الحياة المتنوعة، من

Twitter: @alqareah

مملكة الجماد ومملكة النبات وصولاً إلى الحياة البشرية، مروراً بكل حلقات الوجود، من أصغر ما يدركه العقل البشري حتى أكبره. من هنا مبدأ اللاعنف «Ahimsâ» ومبدأ البحث الحثيث عن فهم علمي أو أسطوري للكون. ومن المهم أيضاً تحديد ما إذا كان الأمر يتعلق بإدراك أو فهم أو تعليم أو تجسيد للحدس الأساسي الذي يفتح أبواب المعرفة.

من المفيد أيضاً، بلا شك، الاتفاق على معاني الكلمات، ذلك أن الانتقال من لغة إلى أخرى يقتضي الدخول في مقاربة متميزة للحقائق التي غالباً ما تكون ضائعة. «اللغة تؤول إلى كلام يتجاوز المفردات المعجمية والمرجعية والمدلولات»، هذا ما يقوله أوكتافيو باز (Octavio Paz) في كتابه «القراءة والتأمل *Lecture et contemplation*»[1]. «المعنى لا يتلاشى لكنه يتعذر اختزاله بالدلالة: إنه شكل». وفي نظر البوذيين «الشكل فارغ والفراغ شكل»... وما يصح على اللغة يصح على الإدراك؛ فالإدراكات ليست سوى جسور تتيح التقاط معنى أو تأويلٍ. هذا العبور يغير بالضرورة وضع المشكال (آلة أنبوبية تتغيّر فيها الرسوم والأشكال والألوان)، ويغيّر أيضاً، بصورة واعية، زاوية النظر إلى البانوراما المحيطة. ويؤدي ذلك إلى أن الترجمة بالذات، الأمينة جداً والأكثر دقة يمكن أن تكون بمثابة فخ ويمكن أن تكون هي مفخخة أي مخادعة. من هنا الدور الأساسي للتجربة ونحت «النبيه» في تماثيل؛ وبعد، فالكلمات ليست سوى تحولات وتأويلات، وفي أحسن تقدير معالم لتعيين الهدف، وإذا لم تنتقل مباشرةً من معلم إلى تلميذ، مع حلقات مفقودة قصداً، لأن المفاتيح لا تكون مباحة أمام الجميع، فإن النصوص، حتى المعروفة منها والأكثر شيوعاً، ليست إلا أصدافاً نصف ملأى، أو نصف فارغة.

ما يصح على اللغة يصح أيضاً على الزمن. فالزمن في نظر

Twitter: @alqareah

بوذا بالذات، أو تلميذ البدايات، دائري طبعاً، وهو ابتداء أبدي لا بداية له ولا نهاية، وعلى هذه الصورة يعرفه التراث الهندي. هو خطي طبعاً في حياة الفرد، لكنه دائري في إطار العلاقة بالكون، حيث الأرض ليست إلا نقطة عبور إلى صدفة الانبعاثات الممكنة والمحتملة على فترات طويلة أمام الكائن المحظي بالوعي. لهذا السبب يملك الإنسان فرصة كبيرة في إمكانية اختياره الخروج من هذه الحلقة اللانهائية، وذلك بقطعه الروابط التي تبقيه أسيراً. على الكائن البشري وحده أن يفكر رأساً في مصيره وأن يمتلك الوسائل لوقف دورة الانبعاثات التي يمكن أن تقوده، تبعاً للقصد من أفعاله، من واحدة إلى أخرى من ست «ممالك»، أقل من نصفها يمكن أن يكون مقبولاً. المقصود بذلك، استناداً إلى «دولاب الحياة» في التيبت، أرض الآلهة، الجبابرة (محظوظون أكثر من البشر، لكنهم هم أيضاً فانون)، والكائنات البشرية. ثم يأتي بعد ذلك، وبدرجة أدنى، عالم الحيوان وعالم النفوس الجائعة وعالم النفوس الشريرة أو الشيطانية، أو المؤذية والعدوانية تبعاً للترجمة.

غير أن هذا التصنيف نهض مع نهوض تفسيرات «المركبة الكبرى»، العقيدة الأصلية التي تستمد قوتها من كونها راسخة في عقل الكائن البشري وفي السيطرة على حواسه، لا من المعتقدات ولا من الإيمان بقوة خارجية ربانية أو خالقة. مع ذلك، فالزمن خطياً كان أو دائرياً في الإدراك، يظل كبُعد فريد لا يستطيع أحد أن يختصره، مهما تكن نظرته أو قراءته أو تأويله أو تصوره للعالم؛ وكم من باحث حديث بذل ما في وسعه، وبعضهم ما زال يبذل، للقبض على بُعد الزمن أو على أبعاده، والشيء الوحيد المؤكد لدى الجميع هو أن أحداً لا يقدر على الظفر به، لأن جزءاً منه موصول بالموت، وعليه فالخلود البشري ليس سوى ما تراه الروح، وفي المنظور البوذي، من الأفضل إذن عدم التفريط في الحياة.

Twitter: @alqareah

III. معاودة الكشف عن اللاعنف

إن مفاهيم الترابط والمعلولية (Karma) واللاعنف (Ahimsâ) تشكّل عصا المسافر. أصل المصطلح واضح: Himsa = عنف، Ahimsa = نقيض العنف. وقد تُرجمت العبارة، بمعناها الأوسع، من قِبل البوذيين واليانيين بدايةً، بموقف يقوم على الاحترام المطلق لكل حياة، قولاً وفعلاً وتفكيراً. وبعد وضع هذا المبدأ بقي أمر تطبيقه رهناً بواقع غالباً ما كان غير مؤاتٍ له. في القرن العشرين وظّفه غاندي بمهارة استثنائية سلاحاً في حرب التحرير الوطنية، إلا أن العدالة تقضي بالاعتراف بأنه كان يواجه أكبر قوة في زمانه، لكن ممثليها كانوا يملكون حساً أكيداً باحترام القوانين أو بالأحرى «fair play». يقول المهاتما (mahatma) نفسه «لا يمكن أن نعلّم اللاعنف للذي يخاف من الموت ولا يملك القدرة على المقاومة». وقد أقرَّ المهاتما أيضاً بأنه إن امتنع شخصياً عن تصويب هذا العالم الذي يعيش فيه ويعرفه جيداً، فإن وسائل أخرى قد تفرض نفسها، لا سيما في حالة الدفاع المشروع عن النفس: «إذا كان ممكناً مواجهة الظلم باللاعنف فهذا أفضل، وإذا لم تتوافر إمكانية أخرى فكل الوسائل مباحة، وأنا لا أتمنى أن أرى الهند تنحط حتى وقوعها في العجز». هكذا وضع غاندي النقاط على الحروف ليبيّن «سهولة» هذا الطريق.

غير أن اللاعنف أضمر على مر العصور طريقة في العيش أسهمت في خلق مُناخ خاص في الأقطار التي عاشت البوذية فيها. مع ذلك ينبغي الاحتراس من الخلط بين اللاعنف وبين الاستكانة (اللافعل). فممارسة اللاعنف تتطلب في البداية وضوحاً قاطعاً في اعتماد هذا السلوك، على وجه التحديد، جواباً على التحديات الملازمة للوجود البشري. والتجربة صعبة في ضبط النفس وعدم استخدام القوة إلا بدراية وروية، وفضلاً عن ذلك، من غير انفعال،

Twitter: @alqareah

وقد جسد ذلك الرهبان الفيتناميون الذين أشعلوا النار بأنفسهم أمام الجمهور لمساندة بلادهم المتطلعة إلى الحرية، وقد كان التعبير فردياً لا يمس الآخر، ويمكن أن يُستخدم كمثال يُحتذى أو كمشعل لا أكثر ولا أقل.

لا يمكن أيضاً أن يكون اللاعنف مسالَمةً حازمة تبرر كل أنواعِ الجبن والاستسلام، وما من شك في أن اللاعنف مفضل دوماً على العنف، حتى لا يكون هذا الأخير ضرباً من العمى الإرادي، أي وجهاً آخر للجهل المغذي للغضب أو للحقد ومؤدياً في الغالب إلى الحسد والرغبة في الثأر ورد الثأر؛ إذ لا شيء أفظع من هذا في تأجيج العنف اليومي. السؤال ليس محسوماً والجواب لا يلزم إلا نفسه. فاللاعنف ليس محايداً ولا علاقة له ألبتة بهذه الحيادية الأخلاقية الأنانية، إن لم نقل الانهزامية، التي ليست، في العمق إلا إحجاماً عن الاختيار وعن اتخاذ قرار، خوفاً من تحمل مسؤولية. أما اللاعنف البوذي فهو، بمعنى ما، انتصار على الخوف.

حملات دولية لكتابة البيانات والتوقيع على عرائض، توزيع مناشير، مسيرات احتجاج سلمية، الإضراب عن الطعام، مقاومة سلبية أو عدم تعاون، دروع بشرية، كلها وسائل لاعنفية للتعبير عن الاختلاف ومحاولة لفت النظر. لكن هل تكفي كلها في مواجهة سلطات عازمة على تكريس وتغليب وجهة نظر، إن لم نقل تغليب مصالحها، بكل السبل والوسائل، بما في ذلك الأسلحة؟ إلى حدٍّ ما، الحياة ذاتها عنف، فهل على الكائن البشري أن يحمِّلها عنفه أيضاً ؟ البوذية لا تقدم إجابة حقيقية على هذا السؤال، لكنّها لم تتمكن من تجنُّبه: هدفها المحدد هو المضي نحو الحقيقة الكامنة وراء الظواهر، وهو دولاب النجدة لمساعدة من يبحث عنها لكي يعرف مصدرها الحي ويتصرف بالتالي على هَدْيِ ذلك، في هذه

Twitter: @alqareah

الحياة الحاضرة لا في تلك الآتية، وهي ستأتي على أي حال، ولكي يتوصل ، على الأقل، إلى مرحلة الوضوح التي تسمح بقطع كل أواصر الصلة، أو بقطع العقدة الغوردية، أي بحل المشكلة العويصة. المعرفة أم الحكمة؟ إن حقل الأفكار شاسع، وكثيرة هي دروب البوذية التي تفضي إليه وتجول فيه.

على منعطفات هذه الدروب، يمكن للمستكشف أو الطالب أن ينبش معالم غير متوقعة. فمنذ بداية الثمانينيات أتاحت النقاشات والمفاهيم المتواجهة وتبادل الأفكار والتجارب المنظمة دورياً لباحثين مرموقين أن يكتشفوا التقنيات القديمة لا بهدف تفسيرها بل ليرصدوا ويراقبوا حقول النوم والأحلام، وليفهموا بصورة أفضل ألطاف فضائل البسطاء ونجوع العلاجات التي يركّبونها. وقد جمع علماء أعصاب وأطباء وعلماء نفس وفيزيائيون وأنثربولوجيون، باهتمام تشوبه الدهشة والحذر، حصاداً غير مشكوك فيه، من خلال فك رموز المفاهيم القديمة التي غربلها الزمن والعزلة، وذلك خلال حوارات بين الثقافات وأنظمة المعرفة تحت عنوان «**العقل والحياة** ***Esprit et vie***»[(2)].

شعراء وفنانون اكتشفوا فيها أصداء وتناغمات غير متوقعة، في بحثهم عن المعنى، حيث تزول التناقضات في فضاء اللحظة لكي تتوازن الأضداد. لعبة عابرة على الكلمات وبين الكلمات وعلى النظرة والصوت وبينهما كذلك، فيضاف إلى الرأفة والسكينة، إضافةَ الضرورة، ذرّةٌ من جمال صاف. انسجام يتوالد من غير انقطاع تبعاً لقواعد صارمة ينبثق منه رسم تخطيطي باطني أو تجسيد للعوالم الداخلية والخارجية والكونية المتضامنة باطنياً في اللاديمومة، أو كذلك أيضاً هذه البسمة العصيَّة على التحديد، التي تشعشع غالباً في الظلال الخفيَّة للمعابد البوذية.

Twitter: @alqareah

IV. صورة رمزية

من رؤية إنسان، من بحثه عن الحقيقة، إلى منهج في قراءة العالم، قيل إنه منهج فلسفي أو ديني، تبعاً للميول الشخصية، تبقى صورة رمزية للحكيم، أو الملاذ، هي فكرة تتابع مسارها على أيدي من يحيون فيها ويحيونها. إن طالب اليقظة والمعرفة، حتى لو مضى بحثاً عن معلم، فهو لن يعثر على غير موجِّه وحيد، وهذا ليس بالأمر الثانوي، والموجِّه هذا هو طبيب، في دوائه أحياناً مرارة الحقيقة الموضوعة بوعي كامل في الحجر الصحي. فالمعلم يعلم بدايةً بالمثال، بما هو وبما يفعل أكثر منه بما يقول، وكذلك يتكرر الحذر في كل التقاليد والموروثات ومدارسها صوناً للعضو الجديد من السقوط في حبائل أحد المشعوذين، حتى أن بعضهم يؤكد أن دزينة من السنوات على الأقل، أي دورة حياة كاملة، لازمة للرصد والبحث قبل الركون إلى معلم، إلى موجِّه يحدد الصعوبات ويطرح الحواجز، لكن على المتعلم أن يقرِّر الاستمرار أو البقاء في الدرب ذاته، بل إلى طبيب، على وجه الاحتمال، يعمل ما في وسعه لكي يصف الدواء الناجع، الدواء الملائم لمن يطلب منه الدواء.

لقد أثقل البشر والعصور على هامة حكيم شاكيا «Shâkya» طبقات من الأساطير والمعجزات. بعد نفض غبار الزمن والبهارج المتراكمة من صنع الخيال نفضاً صبوراً، يمكن أن يظهر «النبيه» بمثابة جوهر التناقضات البشرية، وأن يتلخص انتصاره بأنه انتصار عليها. إن بوذا الذي أسس عقيدته على العقل والتجربة لم ينكر وجود الآلهة، وهو جاورها واقترب منها في مرحلة الزندقة أي قبل أن تنضج صورته، غير أن الحماسة الشعبية هي التي أضفت عليه من هامة الآلهة بعد موته. لقد كان يجيب على الأسئلة المباشرة جداً بالحِكَم والرموز أكثر منه بالسلب والإيجاب، دافعاً

Twitter: @alqareah

السائل إلى أن يفكر هو نفسه، وكان، بالإجمال، يكتفي بفتح الأبواب داعياً الآخرين إلى تجاوز عتباتها ثم يعود إليها ليشجع أقرانه على ولوجها. وإذا كان الماضي الفردي أو الجماعي ينوء بثقله على الحاضر بمقتضى فعل الكارما Karma، فإن المستقبل هو دائماً صيرورة، وهو ليس محدوداً بأية أبدية، ويعود لكل فرد أن يرسم صورته، فيصبح، بالتالي، ثمرة المسؤولية والخيارات اليومية.

«أمثولة الحياة» هذه، بصفتها بوصلة أكثر منها نظاماً، تلزم الكائن كله، جسداً وقولاً وعقلاً. ليس بالأمر العادي أن تدوزن هذه الوجوه الثلاثة كما تدوزن آلة موسيقية، ولو كان الأمر سهلاً لهانت معرفته. فضلاً عن ذلك، هل يكفي طريق واحد لتحقيق هذا العدد من التطلعات الكثيرة؟ فالترياق الشامل لا وجود له، مهما فعل السحرة وبائعو السعادة لتثبيط الهمم وتنويم النفوس. إن النسخة البوذية من السعادة هي تعلّم طويل الأجل، يتميّز ككل تعلّم بالنظام والانضباط والمثابرة والاجتهاد، والتعليم هو الدقة والصرامة والمشقة، وليس الرفق والرأفة مطية الكسل، بل هما وسيلتان فحسب، إن أُحسن استخدامهما تصبح الطريق أقل وعورة، وهما ينموان ويتثقفان مثل كل القيم الأساسية المشتركة بين البشر، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى المعرفة والحكمة، بوجوههما الأكثر تنوعاً. في زمن تبدو فيه البوذية، كفلسفة أو كديانة، أنها نالت حظوة واسعة في العالم، وفي لحظة تبدو أحياناً كظاهرة على الموضة، إن لم نقل بمثابة لوبي في فضاء الزمن، فإن بعض المعلمين الذائعي الصيت يشهدون على خلود هذه الشريعة.

Twitter: @alqareah

الفصل الثامن

دالاي لاما الرابع عشر

صورة مضيئة في عالم مأزوم

كن المشعل لنفسك.

بوذا شاكيا موني

إذا كانت البوذية قد وجدت أرضاً خصبة في الغرب خلال القرن العشرين، فالفضل في ذلك يعود، بالتأكيد، إلى فضول متجدد، ولكن أيضاً إلى معلمين أفذاذ عرفوا كيف يعرضون بمهارة عقيدة «النبيه» أمام جمهور واسع متعطش إلى المعرفة، بل إلى خوض المغامرة. من بين هؤلاء الرواد، على سبيل العد لا الحصر، الياباني دايزتز تيتارو سوزوكي (Daisetz Teitaro Suzuki)، السيلاني (السيريلانكي) والبولا راهولا (Walpola Rahula)، الفيتنامي تيش نات هان (Thich Nhat Hanh)، الكوري سونغ سان (Seung Sahn) وكذلك الخمير مها غوساناندا (Khmer Maha Ghosananda)، ولا ننسى أولئك الكثيرين من العظماء الذين بعثوا أصداءهم في الشروح الشخصية اللامعة: جانغ (Jung)، بالطبع، و. ي. إيفانسو ينتس (W. Y. Evans-Wentz)، جون بلوفلد (John

Twitter: @alqareah

(Blofeld، ڤيكتور سيغالان (Victor Segalen)، جورج لويس بورغس (Jorge Luis Borgse) أو أوكتاڤيو باز، الذي يجيد شرح الكلام بدقة. فهو يقول «أوافق طوعاً على أن القراءة تعني الفهم، لكن ماذا عن التأمل؟ التأمل هو الشكل الأرقى للفهم لأنه يجمع بين النظر والفهم». التأمل أو مفتاح اليقظة؟ هو طريق معيّن، بلا شك: إنها شراكة مباشرة بين الشاعر المكسيكي والدالاي لاما «الراهب البوذي»، كما يعرِّف هو نفسه، شراكة انعقدت عند لقائهما وشكّلت عبّارة إلى الاتفاق على ما هو أبعد من التسلية ويتجاوز حدود الكلمات.

I. من بوتالا (Potala) إلى العالم

إلاّ أن الأمر يختلف كثيراً في بوتالا المدهشة في لاسا «Lhassa» ذات المنصات للحدث العابر حيث تدور ملهاة العالم اليوم، وفي تاكتسر «Taktser قرية النمر المزمجر» الحارس الساهرِ في أعلى السيرك الجبلي على تخوم منحدرات التيبت، وصولاً إلى لاسا التي شوهها السباق المحموم المفروض عليها نحو الحداثة المزعومة. إنها معالم ضرورية لتحديد الزمان والمكان، إن لم نقل التاريخ: لاسا عاصمة التيبت التاريخية، مركز السلطة الزمنية والروحية للدالاي لاما في القصر ـ القلعة: الأحمر والأبيض في بوتالا على ارتفاع 3600 م وراء هملايا، المخفضة رتبتها من «مدينة محظورة» إلى مركز قضاء في منطقة لا تملك من الحكم الذاتي على الخريطة السياسية للصين الشعبية إلاّ الاسم. وعلى ستين كيلو متراً من زيلينغ «Ziling»، عاصمة مقاطعة كنغهاي «Qinghaï» تقع تاكتسر «Taktser» في آمدو «Amdo»، الضيعة الصغيرة التي ولد فيها، في اليوم الخامس من الشهر الخامس في تقويم التيبت أي السادس من حزيران 1935، لامو

Twitter: @alqareah

تـونـدوب (Lhamo Thondup) الـمـعـروف بـاسـم تـنـزيـن غـيـاتـسـو (Tenzin Gyatso)، أو الـدالاي لامـا، الـرابـع عـشـر مـن الـسـلالـة. إنـهـا طريق، متعرجة في الغالب، سلكها ذاك الذي غدا، خلال الربع الأخير من القرن العشرين، صاحب صورة خاصة ومميَّزة في واقع الغرب ومخيلته.

في المخيلة أولاً، ما زالت التيبت تحفز الجميع على الحلم، في كل العالم، من أميركا إلى الصين، مروراً بأوروبا والهند «بلاد الثلوج» أو «سقف العالم»، حيث ينسى المرء، قريباً جداً من السماء، أنه يقف على أرض هي أرض البشر قبل أن تكون أرض الآلهة والرياح والأساطير. ظلت لاسا لفترة طويلة «المكان الإلهي»، واجتذبت حمية المؤمنين وجَلَد الحجاج وتطلعات المغامرين. بوتالا المرتاحة على هضبتها كما لو أنها جسر إلى السماء، على خلفية الأزرق اللازوردي، هي قلعة من مئات الغرف، ومتاهة مظلمة مضاءة بأنوار خافتة بآلاف المصابيح الخفيفة، لم تنقطع أبداً عن إثارة الأحلام الغامضة، طالما ظل يعيش في سر كهوفها حاكم أسطوري جعلت منه الإشاعة الإله ـ الملك ذي السلطات السحرية، وهو ما نهلت منه المخيلات المبدعة والأحلام والأساطير، وكذلك المهابة والمخاوف وربما الأوهام.

أما الحقيقة فهي حقيقة أن تكون يوماً ما، بالصدفة، أمام راهب ذي ابتسامة جذابة وضحكة مُعدية، ونظرة لا يجرؤ أحد على الكذب أمامها، وصوت هادئ وحميم يفتح الآفاق المفاجئة، وأن تستعيد هذه الانطباعات الأولى على امتداد الأيام المليئة باللقاءات والمقابلات والأحاديث في أماكن مختلفة، لكن مضاءة دوماً بحضور «الحضور»، كوندون (Kundun)، كما يسميه أهل التيبت، أو «الجوهرة ـ التي ـ تستجيب ـ لكل الرغبات»، «الظافر الثمين» «المعلم الذي لا مثيل له» «محيط الحكمة» أو «سيد اللوتس

Twitter: @alqareah

Lotus الأبيض». ألقاب شتى تقول، كلٌ بأسلوبه، ما كان يمثّله الدالاي - لاما لجماعته، وللآخرين أيضاً.

ليس من السهل الإحاطة بهذه الحقيقة المتغيرة بوجوهها المتعددة، حقيقة كائن بشري يشبه البشر، فريدة في خصوصية يعترف له بها المؤمنون به. لا يمكن أن يصير المرء دالاي لاما، تبعاً للسؤال الذي يطرح غالباً، فالمرء يكون أو يولد دالاي لاما - والفرق كله يكمن هنا، لأن الدالاي لاما تبعاً للموروث الهندي والتيبتي المتعلق بالتناسخ والتقمص، هو خلاصة أسلافه، من ثلاثة عشر تناسخاً تعاقبت منذ القرن الخامس عشر على «عرش الأسد» في لاسا. المعنى الحرفي لذلك هو أن الكائن نفسه - أو مبدأ الحياة - هو الذي كان يحل في «جسد التحول»، ويدخل دخولاً مؤقتاً في دورة التقمص «Samsarâ»، ليبلغ نهاية المهمة التي أوكلت إليه، وليساعد، حسب بوديساتفا «Bodhisattva»، كل الكائنات على التحرُّر من قيود الكارما «Karma» والوصول إلى المعرفة التامة أو إلى الحكمة، والتخلص نهائياً من خصائص الوجود الثلاث الناجمة عن الجهل والطمع والتوله، وهي اللافردية والألم واللاديمومة.

الطريق طويل، ولئن كان بوذا قد عبره في حياة واحدة، فإن الذين ينشدون اتِّباع طريقه لا يملكون القدرة ولا الحظ للسير بالسرعة ذاتها، مع استثناءات قليلة. فهل كان الدالاي لاما واحداً من هؤلاء الباحثين عن المطلق، المتحمسين لكسر كل وهم مهما كان الثمن؟ كان الدالاي لاما من أَتباع «طريق الوسط» العزيزة على مدرسة جيلوغ - با (Gelug-pa) البوذية التيبتية التي انتمى إليها، وكان يحصر جوابه، حين يُسأل، بأن له أحلاماً ثلاثة: بلوغ الحالة البوذية، عالماً خالياً من السلاح، العيش في تيبت حرة. وعلى مرّ السنوات اعتاد على قضاء وقته في نشاطات متنوعة

Twitter: @alqareah

وقسرية مستفيداً من لحظات عزلة وتوحد يكرسها للتأمل والدرس والتفكير. وإذا كان الدالاي لاما معروفاً اليوم كشخصية عامة، ومعروفاً أكثر لدى جمهور واسع من المثقفين المتنوعين، فإنه كراهب بقي مترسخاً في جذور صمته وسلامه الداخلي. ربما يكون هذا التناغم بالضبط المتوازن والمشع، هو الذي يلفت النظر بهذه الطريقة في عالم يملأه الضجيج وتضارب المصالح وصدام الإيديولوجيات، حين لا تكون هذه إيديولوجيات دينية.

لامو توندوب (Lhamo Thondu) ولد في بيت ريفي متواضع عام 1935 وظهرت عليه التباشير وأَمارات الخير. بعد درسها وتفحصها واستشارة الآلهة، وبعد اختبارات تقليدية دقيقة، جرى «الاعتراف» به، من أعلى المراتب البوذية في التيبت، بمثابة تناسخ من توبتن غياستو (Thupten Gyasto)، المسمى بِـ «الثالث العشر الكبير»، سلفه الذي أعلن رسمياً استقلال التيبت عام 1912. دخل إلى الرهبانية في الثالثة من عمره في الدير المجاور لكامبوم «Kumbum»، في مسقط رأسه، وراح الطفل يتهيأ لمصير فريد، فكان عليه أن يتوجه إلى لاسا وقصر بوتالا على هودج في عربة فخمة مهيبة، ويخضع لتربية تناسب مرتبته، على أيدي معلمين مشهود لهم، قبل أن يتولى السلطات الروحية والزمنية في بلاده وهو في الثامنة عشرة من العمر. إلا أن الظروف التاريخية قررت خلاف ذلك، فقد فرض الاجتياح الصيني سيطرته على البلاد، وأُرغم الفتى على تحمل المسؤولية وهو في سن السادسة عشرة. ثم جاءت الانتفاضة الشعبية في لاسا ضد الصين عام 1959 مغرقة البلاد في الدم ومجبرة إياه على سلوك المنفى.

منذ ذلك الوقت وجد تنزين غياستو (Tensin Gyatso) ملاذاً في قلعة جبلية صغيرة في شمال الهند على بعد خمسين كيلو متراً من مسقط رأسه في التيبت، وكرَّس أفضل أوقاته لحماية

Twitter: @alqareah

الحضارة التيبتية ولم يتوقف عن المطالبة بالعدالة لشعبه، كما لو أنه كان يعرف بالحدس «أنه ما من موت أكثر هولاً من الموت الذي يحرم شعباً من ثقافته ويقتلعه من جذوره ومن قيمه، أي ينتزع منه هويته»(3).

بعيداً عن أبهة العلاقات وصرامتها في بوتالا، أقام في منفاه إدارة تهتم بمصير الجماعات من أهل التيبت اللاجئين المشتتين في أربع زوايا الهند وفي كل القارّات، وعلى مر السنوات التأمت حول مقر إقامته دائرة من اللقاءات الخليطة شارك فيها بعض من قادهم الفضول إليها من بعيد وقادمون من وراء هملايا مستعدون لمواجهة كل صنوف الموت، فقط لكي ينحنوا أمام من ما زالوا يعتبرونه ممثلهم الحقيقي الوحيد، لا بصفته الإِله ـ الملك، بل تجلياً لبوذا الرحمة على الأرض وحامياً لبلاد التيبت.

II. جائزة نوبل للسلام

نال جائزة نوبل للسلام عام 1989 اعترافاً له بكفاحه غير القائم على العنف في سبيل حل عبر الحوار للخلاف بين الصين والتيبت. مذ ذاك صار الدالاي لاما مشغولاً بوطأة اليومي. من غير أن يتخلى عما عرف عنه من لطف ودماثة، أو أن يتجاهل ما تعنيه بدقة موازين القوى على الصعيد العالمي. وبالرغم من الرفض الصيني الصارم، ظل محامياً بامتياز عن حرية شعبه أملاً بصون ما يخص الآخرين. جدد دالاي لاما صلته، دون أن يسعى إلى ذلك، مع التراث البوذي، كراهب متجول، سافر للتدريس ولقاء الناس وتقديم العون تخفيفاً للتوترات المتفاقمة على الكرة الأرضية. كان متناقضاً أحياناً في آرائه التي لم تكن دوماً «صحيحة سياسياً»، لكنها كانت تشف عن وضوح مدهش، وكان انفتاحه على الرأي الآخر وعلى الآخرين قد وضعه ضمن السلالة

Twitter: @alqareah

الكونية من أسماء الحراس والرواد الساهرين على طرق الوجود المتعرجة، لكنه مضى مثلما الآخرون مضوا.

تسهيلاً للتفاعل مع الآخر، لم يتردد دالاي لاما الرابع عشر في التثقف على تقاليد ليست تقاليده. وأتاحت له مقاربته الخالية من القبْليات أو الأفكار المسبقة أن يفهم الاختلافات الصغيرة حتى في دقة الكلمات، فكانت بعض المؤلفات الغربية المخصصة عن البوذية تشير إلى مصطلحات «التحرير»، «الخلاص»، «الثواب»، «الخلاص الديني»، أما في البوذية فكان المقصود، حسب رأي دالاي لاما، التحرير أو التحرر، التحرّر من العذاب والجهل اللذين يعيقان قدرة البشر على بلوغ السعادة والسلام والحرية الحقيقية. أما «الخلاص والثواب والخلاص الديني» فهي تفترض وجود سلطة عليا خارجنا، في حين تشدد التعاليم البوذية بالدرجة الأولى على أن نتحمل نحن المسؤولية عن أعمالنا وسلوكنا وتصرفاتنا. «ونحن نصل إلى التحرر بجهدنا الخاص وممارستنا من دون اعتماد على أي آخر يقوم بالعمل نيابة عنا». بهذه الكلمات عرَّف قائد التيبت الروحي والزمني البوذية في عالم اليوم: «لقد قدم لنا بوذا مثلاً عن الرضى والتسامح، بإسداء الخدمة إلى الآخر بطريقة عفوية، وكانت تعليماته تقضي، في جوهرها، بمساعدة الآخرين إذا كان ذلك ممكناً وإلا فمن الواجب، على الأقل، عدم إلحاق الأذية والضرر بهم».

هناك علاقة بديهية، في نظر دالاي لاما، بين البوذية وأهيمسا (Ahimsâ)، أو اللاعنف: «اللاعنف لا يعني فحسب غياب العنف، إنه شيء أكثر إيجابية وأكثر دلالة. وهكذا فالرأفة تعبير فضفاض عن اللاعنف. بعضهم يظن أن الرأفة صنف من الشفقة لكنني لا أعتقد أن هذا الظن صحيح، فالرأفة الحقيقية هي شعور متبادل بالقرب من الآخر، وفي الوقت ذاته، تحمل معنى المسؤولية

Twitter: @alqareah

عن السعادة الشخصية، والرأفة الحقيقية تتطور حين نقبل الآخر بصفته كائناً مثلنا، كائناً يرغب في أن يكون سعيداً وألا يتألم.

«هذه الرحمة تحصل حين ننمّي قلقاً أصيلاً على التجربة الصعبة التي يمرُّ بها الآخر أو العذاب الذي يعانيه، قلقاً يرافقه الحس بالمسؤولية. وإذا ما نما هذا النوع من الرأفة والحنان، يغدو قابلاً لأن يطبق على كل الكائنات البشرية بمن في ذلك من نحسبهم أعداء، أي الذين يعاكسوننا ويقلقون نفوسنا، ومهما فعلوا ومهما كان تأثيرهم علينا فلا مناص من الإقرار بحق كل الكائنات بالسعادة، إذاك لا يعود من الصعب أن ننمي الرأفة والحنان حيالهم. عادةً يكون سبب شعورنا بالحب والحنان منحرفاً، فهو شعور نبديه تجاه أصدقائنا فحسب وليس تجاه أي كان من الناس، وخصوصاً تجاه من نعتبرهم أعداء. وهذا ليس من الرأفة والحنان بشيء. فمن الطبيعي، حين يكون شعورنا بالحنان شمولياً حقاً، أن يرافقه شعور بالمسؤولية، وهذا ما أسميه «المسؤولية الشاملة»، أي الرغبة في عمل شيء ما من أجل الآخرين من غير دافع منفعة، أي بدافع الحنان».

«إن تنمية الحنان هي جزء مهم من ممارستي البوذية اليومية، وأنا الدالاي لاما صرت لاجئاً، وعليَّ أن أواجه مشاكل هائلة. إلا أن انطباعاً يتكوَّن لديَّ أحياناً بأن ممارستي اليومية للرحمة والحنان تقتصر على الانزواء في زاوية غرفة وعلى التأمل بالحنان. هذا أمر جيد وجميل ومريح، لكن فكرة استيلاء روح بوديسيتا «Bodhicitta» المتنبهة، أو نشدان أن يصير المرء بوديساتفا «Bodhisattva»، تبدو غامضة قليلاً وبعيدة. فكلمة بودي Bodhi لها دلالة خاصة لدى البوذيين، في حين أن كلمة ساتفا Sattva تعني الجوهر ذاته، وبهذا المعنى فإن الكلمة، بلغة أهل التيبت، تعبِّر عن فكرة قريبة من العزم الشجاع أو عن الشجاعة

Twitter: @alqareah

الحاسمة، شجاعة التفكير في الآخرين وعمل أي شيء من أجلهم، وذلك أفق إحساسنا بالمسؤولية، متمنين لهم بلوغ أعلى درجات السعادة والهناء»[4].

III. كلمات وصمت

مسألة كلمات أيضاً في الشرح والترجمة، فهل توجد طريقة أخرى للتفاهم، وإلا فتقاسم الصمت؟ إلا أن أوكتاڤيو باز الخبير في هذا الشأن يقول: «الصمت متعلق بالكلمة، إنه البُعد الوحيد للكلام. بين المعنى واللامعنى، بين الكلام والصمت ومضة: معرفة من غير معرفة، تفهُّم من غير تفاهم، كلام صامت». وماذا عن صمت بوذا؟ ربما كانت هذه النقطة في قلب دوَّارة الرياح، حيث يتلاقى التأمل والتفكر ما وراء الكلمات على وجه التحديد: لا يهم، فبواسطة (بتوسط) الكلمات تغدو التجربة مشاركة أو تعليماً وتوصيلاً وانفتاحاً. من هنا أهمية التربية، بالنسبة للدالاي لاما، بالمعنى العميق للكلمة، أي تعلُّم الصيرورة بمثابرة، من أجل الوجود والكينونة. قبل ذاك بسنوات كان قد أشار خلال لقاء في دارمسالا «Dharamsala»، حيث كان لاجئاً في الهند: «القيمة الجوهرية للتربية لا تظهر كفاية، وليس فحسب بمعنى اكتساب المعارف وتراكمها. إنني، كراهب بوذي، كما ترون، واحد من أولئك الذين اختاروا، حسب التعبير الدقيق، «مغادرة منزل» الأنانية والملكية الشخصية والروابط العائلية والطموحات الاجتماعية سعياً وراء السلام ومن أجل الظفر بالثروة الحقيقية، ثروة الرضى وإقامة علاقات الحنان والحب مع كل الكائنات الحية، ومعرفة الفرح المستديم، فرح الاهتمام بالآخرين. ولا يعني ذلك أنني، كراهب، قد بلغت ذلك، حسبي أنني أسعى، لأنني قد نشأت على هذا المثال الأعلى»[5].

Twitter: @alqareah

هل هذه الطريقة في العيش وفي تفسير العالم ملائمة للمجتمع البشري في فجر الألفية الثالثة، في وقت تتكاثر فيه صراعات المصالح وتتفاقم التوترات إلى الحد الذي يتحول فيه العنف إلى حدث يومي؟ من الواضح أن الدالاي لاما فكَّر طويلاً في هذا السؤال، إلا أنه اعترف بأن الحنان لا يكفي، للأسف، لمواجهة عمل إرهابي أو عمل عنف مباشر كعملية خطف رهائن مثلاً: «هنا لا مجال لتطبيق الطريق الثالث، الطريق الوسط. وفي الحالتين الأخريين لا نملك أي خيار إلا تقدير أصغر الآلام والتصرف بما يمليه الضمير. ومن المحزن والصعب قول ذلك، لكن ينبغي أن نعرف كيف يكون المرء واضحاً. حتى بوذا بالذات، يقال، اضطر في حياة سابقة قديماً إلى قتل رجل شرير من قطاع الطرق كان يتهيّأ لقلب عبّارة محملة بالحجاج لغاية سلبهم... كما لا يكفي أيضاً أن نشيح النظر قائلين «إن الأمر لا يعنينا أبداً»، فهذا ليس صحيحاً ولا عادلاً، وإذا لم تتوافر حلول سحرية فذلك لا يمنع من ضرورة المضي في البحث».

البحث هو البداية، وربما كان أحد الأسباب التي تضفي على البوذية اليوم، على اختلاف مدارسها، شيئاً من الجاذبية. في المجتمعات الآسيوية خصوصاً حيث تشكّل عقيدة «النبيه» جزءاً من التقاليد وجزءاً من السلوك اليومي، من «الطبيعي» أن ترى الرهبان ذاهبين منذ بزوغ الفجر في مواكب طويلة بحثاً عن قوتهم اليومي، كما أن من «الطبيعي» أن يعفي السكان العلمانيون أنفسهم من هذه المهمة؛ وكذلك فلئن كانت هذه العادة لا تزال موجودة في الأرياف والقرى والمدن فهي محشورة في دوامة عملية التحديث الفالتة من عقالها. في المقابل، لا يزال التقليد المتعلق بالدراسة والممارسة موجوداً في أماكن تقع على هامش الفورة المعاصرة، حيث تتابع الحياة النسكية والرهبنية، انسجاماً مع إيقاعات

Twitter: @alqareah

الطقوس المتوارثة جيلاً عن جيل على سبيل الاستقامة والضرورة.

في المجتمعات الغربية المسماة متطورة يبدو المعطى مختلفاً. فما وراء الفضول وحب الاطّلاع والميل إلى الغريب، وفي ظل نمط من التفكير أجرى اختباراته بأساليب أخرى، ونمط من «الاكتشافات» الحديثة كثيف وبأعداد كبيرة، يبدو أن البحث عن معنى ومنهج، أو على الأقل عن انتظام ما، يدفع نحو استكشاف آفاق أخرى حينما يشعر المرء أن أفقه الخاص أخذ يضيق. إن تقديم أجوبة على أسئلة جوهرية، في ظل عالم متغيّر متحول ومحصور في يقينيات تخطاها الزمن، أو مذعور من فقدان البوصلة، يتطلب دقة في التفكير والاستدلال والبرهنة. إن تماسك الطريقة البوذية يجعلها تبدو ملائمة للذين وقع اختيارهم عليها. ولا شك أن هذا ناجم عن نوعية التلاقي على الطريقة وكذلك عن التشديد على التجربة الشخصية كمعيار للحقيقة، أي، بمعنى ما، واجب أن يقوم المرء شخصياً، أي بنفسه، بعملية التفكير؛ بعد ذلك قد يحتاج إلى دعامة ليستأنف طريق الصيرورة، فيغدو من الضرورة عدم الانخداع في خيار المدرب، أي ضرورة أن يقوم بنفسه ببذل الجهد ويختار طريقه ويمشي.

إذا كان «لكل لاما عقيدته»، على زعم قول مأثور قديم في التيبت، فإن دالاي لاما لم يقتصد في حذره من القرارات المتسرعة ولم يقصِّر في تشجيعه المتعطشين إلى سلوك هذه الطريق على تفحص تقاليدهم الخاصة قبل المضي في خطواتهم الأولى. إلا أنه قد يحصل أن تدفع زاوية النظر الجديدة هذه للعودة إلى محيطهم الأول بفعل مقاربة انتعشت بالنظرة الخارجية. ولكن، كثيرون هم الذين يجدون فيها، إن لم نقل كل الأجوبة، فعلى الأقل مبرر وجود، وأقدامهم على الأرض والرأس متجه أحياناً إلى السماء: «إذا كان من يقين مطلق لدى كل واحد، يقول

Twitter: @alqareah

دالاي لاما، فهو أن هذه الحياة ستبلغ نهايتها ذات يوم، وينبغي التفكير في ذلك في حينه حتى لا يكون ندم ولا أسف، كما ينبغي التهيُّؤ لهذا الاستحقاق ونحن نعيش هذه الحياة ضمن هذه النظرة وعلى هذا الضوء، فاعلين ما هو أفضل لكي نجعل العالم أكثر قابلية للسكن والوجود. أكثر قابلية للحياة لدى الأكثرية. إن تعليم العقيدة البوذية خيار جيد لكنه لا يلائم جميع الناس، وبلوغ الحكمة أمر يقبل الانتظار، هنا والآن ينبغي تحديد الخيارات تبعاً للتطلعات والإمكانات».

حين يغدو مفهوماً ومقبولاً أن كل شيء موجود خاضع للولادة والتحول والانطفاء، أي للاديمومة، تغدو الحياة تجربة لا يخرج أحد منها سليماً، لكنّها تستحق بلا ريب أن تُعاش.

كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss)، عالم الأنثربولوجيا، وضع في تأمله في تاكسيلا *«Taxila»*، الذي اختتم به «**مدارات حزينة** *Tristes Tropiques*» فرضيته القائلة بأن الإسلام حال دون لقاء البوذية بالمسيحية، وفي تعليق أوكتاڤيو باز (Octavio Paz) على هذا الكتاب، يقول الشاعر المكسيكي إن مؤلفه لم يكن مخطئاً حين رأى أن هذا اللقاء كان يمكن أن يبدو اللعنة المرعبة التي أفقدت الغرب عقله، حين دفعته نحو سباق محموم على السلطة وعلى التدمير الذاتي. يضيف الشاعر المكسيكي، «إن البوذية هي الحلقة المفقودة في سلسلة تاريخنا، العقدة الأولى والأخيرة التي بسقوطها تسقط السلسلة (...) إن ما اقترحه بوذا في بداية تاريخنا قد لا يكون قابلاً للتحقق إلا في نهايته، ذلك أن الإنسان المتحرّر من عبء الضرورة التاريخية ومن طغيان السلطة هو وحده القادر على تأمل عدمه من غير خوف».

«على المرء أن يتأمل عدمه الشخصي من غير خوف». ربما يفسح صفاء العقيدة البوذية، المبنية على اللاديمومة بالتأكيد، لكنْ

Twitter: @alqareah

الحاملة أيضاً رقة لامتناهية حيال كل ما ومن يعيش، واحتراماً لا لبس فيه للآخر، في المجال أمام خيار المرء في أن يضطلع بدوره كاملاً في المجتمع والعالم، بالاستناد إلى ضبط النفس والسيطرة عليها. إنها مدرسة المسؤولية، وليست الطريق البوذية، بالتأكيد، هي الطريق السهل، لكنها، من غير شك تستجيب لبعض متطلبات زماننا الأساسية.

Twitter: @alqareah

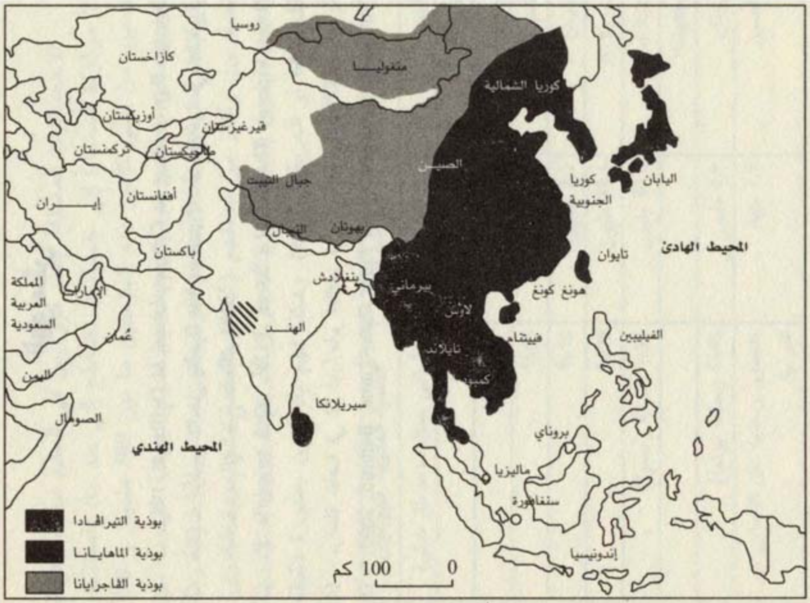

التوزُّع الجغرافي، البوذية المعاصرة

Twitter: @alqareah

الهوامش

(1) Octavio Paz, *Lecture et Contemplation*, la Delirante, 1982.

(2) أُنشئت مؤسسة «العقل والحياة» Esprit et Vie عام 1990، في كاليفورنيا بهدف دعم وتشجيع هذه المبادلات.

(3) Louis Vincent Thomas, *La Mort*, PUF, «Que sais-je?» 5e éd., 2004.

(4) مراسلة خاصة في 12 أيار/مايو 2004، في سياق إعداد هذا الكتاب.

(5) Claude B. Levenson, *Ainsi Parle Dalaï-Lama*, Balland, 2003.

Twitter: @alqareah

توزع البوذيين في العالم

الاحصائيات المتعلقة بعدد البوذيين في العالم ليست دقيقة ولا موثوقة استناداً إلى حسابات تتقاطع إلى حد ما، باستثناء الصين، من أعلى تقدير عدد المؤمنين ما بين 500 مليون و 700 مليون ممن يعلنون بوذيتهم، ما يجعلهم الديانة الرابعة من الديانات الكبرى. 38% منهم مرتبطون بالتيراڤادا (العربة الصغرى)، وأكثر من نصفهم (65%) بالماهايانا (العربة الكبرى) و6% يعرفون بعلاقتهم بالمدارس الأربع الكبرى التيبتية (ڤاجرايانا أو العربة الماسية). وهكذا فهم يتوزعون بصورة دقيقة تقريباً على الشكل التالي:

البلد	عدد السكان	النسبة المئوية للبوذيين
الهند	1,1 مليار	8% (في هملايا ومناطق شتى)
تيراڤادا:		
برمانيا	49,5 مليون	89%
كمبوديا	14,1 مليون	95%
لاوس	5,7 مليون	70%
سريلانكا	19,1 مليون	75%
تايلاند	62,8 مليون	90% (ديانة رسمية)
ماهيانا:		
بوتان	0,9 مليون	95% (مملكة بوذية)
الصين	1,3 مليار	ملحدون رسمياً، لكن الاساس هو البوذية

Twitter: @alqareah

البلد	عدد السكان	النسبة المئوية للبوذيين
كوريا الشمالية	22,7 مليون	ملحدون رسمياً
كوريا الجنوبية	47,7 مليون	%47
اليابان	127,7 مليون	%50 (استناداً إلى الاعتقاد المحلي يولد المرء شنتوياً ويموت بوذياً)
هونغ كونغ	7 مليون	تقاليد بوذية
منغوليا	2,65 مليون	%80
نيبال	25,2 مليون	%10
سنغافورة	4,3 مليون	أغلبية بوذية
تايوان	22 مليون	أغلبية بوذية
التيبت (منطقة الاستقلال الذاتي والمقاطعات القديمة)	6 مليون	أغلبية بوذية
ڤيتنام	81,4 مليون	%85
بنغلادش	146,7 مليون	%1 منهم %24 من الصين غالبيتهم من البوذيين
روسيا:		
بورياسيا	1,05 مليون	أغلبية تيبتية
كالموكيا	325,000	أغلبية تيبتية
توڤيا	315,000	أغلبية تيبتية
مختلف:		
أوروبا	1,570 مليون (لاجئون آسيويون ومهاجرون جدد)	
فرنسا	500,000 (لاجئون آسيويون، مئات المراكز ذات الولاء التيبتي إضافة إلى مراكز وتيارات أخرى)	
أميركا الشمالية	2,5 مليون (بين الولايات المتحدة وكندا)	

Twitter: @alqareah

البلد	عدد السكان	النسبة المئوية للبوذيين
أميركا اللاتينية	500,000	
الشتات التيبتي	210,000 تقريباً في أرجاء العالم (الأغلبية في آسيا (الهند، نيبال، بوتان، ثم الولايات المتحدة وكندا وانكلترا وأوستراليا وسويسرا وألمانيا والبلاد المنخفضة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا	

المصدر: الأرقام مأخوذة من المؤشرات الديموغرافية في وثائق الأمم المتحدة عن سكان العالم.

Twitter: @alqareah

التسلسل الزمني للبوذية

	الغرب	الهند	الشرق
قبل الميلاد			
28000 –	مملكة مصر القديمة	موهنديو دارو/هارابا	ملوك الصين الاسطوريين
2000 –	أول قصر في جزيرة كريت		
1800 –	امبراطورية بابل القديمة الامبراطورية الآشورية القديمة		
1500 –		الاجتياح الآري ـ الڤيدا	سلالة شانغ ين
1300 –	العبرانيون في فلسطين		
1200 –	نهاية الإمبراطورية الحثية		
1010 –	مجيء داود	البراهمانيون الأوائل أو بانيشاد	سلالة تشيو
970 –	حكم سليمان		
753 –	تاسيس روما		
700 –	تاسيس بيزنطة		
625 –	زرادشت		
558 –		ولادة غوتاما	
550 –			كونفوشيوس
540 –		ولادة ينياڤوس البانية	
523 –	أخيل	يقظة بوذا	
500 –	عصر بيريكليس	داريوس فاتح الهندوس	

Twitter: @alqareah

	الغرب	الهند	الشرق
478 -		موت بوذا	لاوتسو
470 -	ولادة سقراط	موت بينا	
429 -	ولادة أفلاطون		
336 -	ظهور الاسكندر		
325/327 -		الاسكندر في الهند	
260 -		رسامة أشوكا	بناء سور الصين
240 -		مجمع باتاليبوترا التبشير الاول في سيلان	
227 -		موت أشوكا ظهور هينايانا/ماهايانا	ظهور الهانس تأسيس الصين
100 -	حروب الغاليين	الاجتياح الهندوسيتي	
49 -	قيصر ثم أغسطين	برانا باريمتا الأولى	الصين أخضعت الهانس
	العصر المسيحي		
29	موت المسيح		
70	تدمير معبد أورشليم		
80		كتابات باهتة لوتس الشريعة	
134	الشتات اليهودي		
144		حكم كانيشكا	
150	ناجاريونا		

Twitter: @alqareah

	الغرب	الهند	الشرق
205	ولادة أفلوطين		الطاوية والبوذية في الصين
312	هداية قسطنطين		
414/385		فاهيان في الهند	البوذية في سيام وكوريا
400		سوترا دو يوغا ڤازو باندو، أزانغا تأسيس جامعة نالاندا	
450	موت أتيلا	الهانس في كنداهار	البوذية، برمانيا جاڤا، اضطهاد في الصين
496	هداية الكلوڤيس		
500			بوديدارما نحو الشرق
520		الهانس يحتلون كشمير	
570	ولادة محمد		البوذية في اليابان
630	القرآن	هيانغ تسانغ في الهند	سلالة التانغ
642			البوذية في التيبت
711	العرب في إسبانيا	المسلمون في السند	مرحلة نارا/ اليابان بادمازامياڤا في التيبت
800	رسامة شارلمان		ماهايانا في كمبوديا

Twitter: @alqareah

	الغرب	الهند	الشرق
1095	الحملة الصليبية الأولى		
1191 - 1197		تدمير جامعة نالاندا	زن في اليابان
1204	صليبيون في القسطنطينية	سلطنة دلهي	جنكيز خان في الصين
1221		الاجتياح المغولي	
1227		موت جنكيز خان	كاماكورا في اليابان
1270	نهاية الحروب الصليبية	رحلات ماركو بولو	
1286			سلالة يوان كوبيلاي
1337	بداية حرب المئة عام		البوذية في لاوس
1406			تسونغ كابا في التيبت
1483	ولادة لوثر		
1509	ولادة كالڤن		
1517			البرتغاليون في كانتون
1556 - 1605		حكم اكبار	
1577			البوذية في مونغوليا
1642			الدالاي لاما الخامس

Twitter: @alqareah

	الغرب	الهند	الشرق
1664		حملة بلاد الهند	سلالة تسينغ المنشوري
1875	تاسيس الجمعية التيوصوفية		
1891		تاسيس جمعية ماهوبودي	
1912			استقلال التيبت على يد الدالاي لاما الثالث عشر
1914 - 1918	الحرب العالمية الأولى		
1926	مقر بوذي في لندن		
1928	جمعية أصدقاء البوذية في باريس		
1939 - 1945	الحرب العالمية الثانية	نهاية الإمبراطورية البريطانية في الهند	
1949	قيام الصين الشعبية		
1950	اجتياح صيني للتيبت		
1959	نفي الدالاي لاما الرابع عشر		

Twitter: @alqareah

ببيليوغرافيا

H. Oldenberg, *Le Bouddha. Sa vie, sa doctrine, sa communauté,* Alcan, 1894.
E. Isnard, *La sagesse du Bouddha et l'art du bonheur,* Extrême-Asie/Saigon, 1927.
R. Grousset, *Les philosophies indiennes,* Desclée de Brouwer, 1931.
A. Schweitzer, *Les grands penseurs de l'Inde,* Payot, 1945.
J. Bacot, *Le Bouddha,* PUF, 1947.
J. Coomaraswamy, *Hindouisme et bouddhisme,* Gallimard, 1949.
A. Foucher, *La vie du Bouddha,* Payot, 1949 ; Maisonneuve, 1987.
E. Conze, *Le bouddhisme dans son essence et son histoire,* Payot, 1951.
H. Avron, *Le bouddhisme,* PUF, 1951.
R. Grousset, *Sur les traces du Bouddha,* Plon, 1957.
France-Asie, *Présence du bouddhisme,* Paris/Saigon, 1959.
W. Rahula, *L'enseignement du Bouddha,* Le Seuil, 1961.
A. Stein, *La civilisation tibétaine,* Dunod, 1962.
D. T. Suzuki, *Essais sur le bouddhisme zen,* Albin Michel, 1972.
L. Silburn, *Le bouddhisme,* Fayard, 1977.
A. Migot, *Le Bouddha,* Complexe, 1983.
H. Zimmer, *Les philosophies de l'Inde,* Payot, 1985.
Dictionnaire de la sagesse orientale, Laffont/Bouquins, 1986.
Le traité de Bodhidharma, Éd. Le Mail, 1986.
L. Frédéric, *Dictionnaire de la civilisation indienne,* Laffont/Bouquins, 1987.
L'art bouddhique, Olizane-Unesco, 1990.
L. Frédéric, *Les dieux du bouddhisme,* Flammarion, 1992.
Ch. Kontler, *Les voies de la sagesse,* Ph. Picquier, 1996.
J. Snelling, *L'essentiel du bouddhisme,* Calmann-Lévy, 1997.
S. Murcott, *Bouddha et les femmes,* Albin Michel, 1997.
D. Lelièvre, *Voyageurs chinois à la découverte du monde,* Olizane, 2004.

QUELQUES FILMS

Les horizons perdus, F. Capra, 1935.
Le démon de l'Himalaya, A. Marton, 1934-1935.
Pourquoi Bodhidharma est-il parti vers l'Orient ?, Yong-kyun Bae, 1989.
Kundun, M. Scorsese, 1998.
Printemps, été, automne, hiver, Kim-ki Duk, 2002.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

مقدّمة المؤلف للطبعة العربية 5

مقدّمة المترجم 7

القسم الأول

الفصل الأول: البوذية: نظرة غربية 11

الفصل الثاني: من أين جاءت البوذية؟ 24

القسم الثاني

الفصل الثالث: يقظة رجل 35

الفصل الرابع: الممر المثمَّن وتفرعاته 47

الفصل الخامس: التنظيم: تنوع داخل الوحدة 72

الفصل السادس: لقاءات في دروب آسيوية 84

Twitter: @alqareah

القسم الثالث

الفصل السابع: غرابة أم حداثة؟ 98

الفصل الثامن: دالاي لاما الرابع عشر
صورة مضيئة في عالم مأزوم 110

الهوامش 124

توزع البوذيين في العالم 125

التسلسل الزمني للبوذية 128

بيبليوغرافيا 133

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

البوذية

ماذا يعنينا، نحن اليوم، أن يبحث عن الحقيقة أو عن المعرفة رجل عاش قبل خمسة وعشرين قرناً، في ظروف مختلفة جداً عن ظروفنا؟ ذلك أن البوذية هي في آن معاً منظومة فكرية وفلسفية، وفن حياة وطريقة في سبر غور العالم، وهي تسعى فوق ذلك، إلى تعميم رؤيتها لتشتمل المجتمعات كافة. انطلاقاً من حياة "النبيه" بوذا، يدعونا هذا الكتاب إلى اقتباس السبل المتقاطعة على الممر المثمن في العقيدة الأصلية، وهو يرسم تاريخ البوذية وجغرافيتها: معرفة، حكمة، تسامح، استقامة، مثابرة، تفكير، جمال، كل ذلك يزين هذا البحث عن الحقيقة، البحث الذي يمكن لأي واحد منا أن يختار الانخراط فيه.

كلود ب. لفنسون

كاتبة ومترجمة، لها عدد من المؤلفات منها:
سيد اللوتس الأبيض 1987، الدلاي لاما (منشورات ليوكومان، 1987)، ورموز البوذية التيبتية (منشورات أسيولن، 1998).

د. محمد علي مقلد

من مواليد لبنان 1948. حائز على درجة دكتوراه من جامعة السوربون، باريس 1987. ويعمل أستاذاً في الجامعة اللبنانية. وهو مترجم كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" لـ ماكس ڤيبر، و"المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني" لـ فرنان بروديل.

موضوع الكتاب دراسات دينية

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com

ISBN 9959-29-378-5
9 789959 293787